القسم الثالث

حقيقة العلاقة بين هتلر والجنرالات

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن والعشرون

رأى لا وزن له !

لم تتمكن جيوش الحلفاء - خلال الحرب العالمية الثانية - أن تجمع كتيبة من الجنرالات لهم صفة يمكن مقارنتها بتلك التى تولت قيادة الجيوش الألمانية ، وربما كان هتلر هو الوحيد الذى قد يعترض على ذلك بوصفه الرجل الذى كان سبباً فى شهرتهم .

ولم يكن الفوهرر يضن بثقته على هؤلاء الجنرالات فحسب ، بل إنه كان يبدى احتقاره لهم ، بل يظهر حقده عليهم ، كما سيتضح فى هذا القسم من الكتاب الذى لا نستهدف به رواية مسيرة الحرب ، ولا استعراض الأمجاد والأخطاء التى استحقها أو وقع فيها أصحابها ، إنما الغرض من هذا القسم تبيان الطريقة التى أصبح بها هتلر الرئيس الفعلى للجيوش الألمانية ، وتدخله الشخصى المتزايد فى الشئون الإستراتيجية والتوجيه المباشر للعمليات ، وسلوك الجنرالات إزاء موقفه المتسلط الذى كان يمحو أى مبادرة لهم ، وهم نهب للصراع الدائر فى نفوسهم بين واجب الطاعة له ، وبين مشاعرهم الشخصية ووقائع القتال التى أخذت تبتعد تدريجاً ابتداء من عام ١٩٤٣ عن مبادئ الحرب نتيجة لعناد هتلر الذى سيطر عليه مرض خاص ، وهو يعيش فى الجو الصارم الذى سيطر على مقر قيادته العامة .

لقد أهان هتلر رجاله بالجارح من الكلام ، وهزئ منهم ، وحطم نفسياتهم وهم الذين كان من قبل قد أضفى عليهم الشرف والفخار . ولقد صاح ذات يوم فى كبار قادة الجيش وهو يقول : « إن هذه الأفكار تعلو على مستواكم ، وهى ليست فى متناول أيديكم ، ولذلك عليكم فقط إطاعتى طاعة عمياء ! » .

وقد سجل جورنج فى (يومياته) بتاريخ ٩ من مارس ١٩٤٣ العبارة التالية : « إن الفوهرر ليست لديه سوى أحكام سلبية عن مجموع جنرالاته ، فهو يقول : إنهم يضللونه كلما استطاعوا ذلك ، وأنهم مجردون من العلم ، بل لا يعرفون شيئاً عن مهنة خوض الحرب ! » .

لقد كان يضع ثقته فى السلاح الجوى الذى كان يرى أنه « وطنى اشتراكى » . ولا يبالى بالبحرية ، ويحمل ريبة وحقدا على الجيش البرى الذى كان يعتبره « رجعيًا » . وكان يقول عن قيادات هذه القوات : « إن أغلبيتهم من أعضاء تلك الطبقة المدعية النبل ذات العقول الفارغة ، والخيلاء الكاذبة . فلا شىء يخرج منهم إلا العقم ، وهم لم يشاركوا صراحة فى قيام الوطنية الاشتراكية . وكان يعلم تماماً أن هؤلاء المحترفين لا يكنون فى صدورهم احتراما له باعتباره ذلك الأوميشى السابق ، ولذلك فإنه تحملهم طوال خمس سنوات إلى أن تمكن منهم على المستوى العسكرى البحت ، إذ انتصرت كل آرائه على حذرهم ، وعلى تفكيرهم التقليدى .

فالرغم من نصائحهم أعاد احتلال إقليم (رينانيا) ، بينما كانت الزهور تطل من فوهات بنادق جنوده ، وضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا بدون سفك قطرة واحدة من الدم ، ثم قضى على بولندا خلال أربعة أسابيع ، وعلى النرويج فى ستة أسابيع ، وعلى هولندا فى خمسة أيام ، وعلى بلجيكا فى سبعة عشر يوما ، وعلى فرنسا فى ستة أسابيع ، وعلى يوغوسلافيا فى أحد عشر يوما ، وعلى اليونان فى ثلاثة أسابيع . وكانت كل من هذه المراحل تزيد فى اعتقاد هتلر – بنظراته الثاقبة – أنه عبقرية إستراتيجية لم يجد بمثلها الدهر !

والواقع أن الكثيرين قد حكموا بأن هتلر كان إستراتيجيًا ممتازاً ، فهو باستناده إلى معارف عسكرية لا جدال فى أنها واسعة ، ولما وهب له من قدرة على التصور الخلاق ، ولما كان فيه من لماحية ، ولمعرفته الجيدة بآثار المفاجأة ، وما كان يتمتع به من دقة فى تحليل نواحى الضعف فى الديمقراطيات الأوربية – قد أصبح يمتلك مناقب القائد العظيم .

حقا إنه كانت فيه نواحى نقص متعددة ، منها : ما كان يحمله على طلب الحصول على المستحيل ، وعدم تكوينه فى مدرسة أركان الحرب ، وجهله لعناصر التقنية الأساسية اللازمة لتحريك الجيوش . ولقد فقد أدواته عندما اضطر إلى الدفاع ، فكان من شأن الريبة التى يكنها نحو جنرالاته الذين اتهمهم بعدم التفكير إلا فى التقهقر ، وشعوره بالأنفة من إعطاء التفويض بأى انسحاب أو بالدفاع المرن ، وإصراره الذى وصل حد العناد فى إنكار الحقائق وواقع القوى العالمية التى جعلها تقف فى وجهه – كل ذلك قد حول الفشل الذى واجهه إلى كوارث . إلا أنه ينبغى القول بأن الأمر لو ترك لجنرالاته وحدهم ما كان فى استطاعتهم إلا أن يحدوا من الخسائر التى نزلت بألمانيا ، وكائنا ما كان ما سبق من القول فإنه

كان يستحيل عليهم تجنب الهزيمة .

وإذا كانت ألمانيا قد هزمت فإن ذلك راجع إلى أخطاء هتلر السياسية وإلى شراهته أكثر مما يرجع إلى أخطائه العسكرية . كما أنه لم يكن أول من لم يحسن تقدير رد فعل بريطانيا . أو من يقلل من شأن روسيا . أو من انتشى بخمر انتصاراته .

وإذا كان عدد كبير من الجنرالات كانوا يشعرون بالعداء نحو هتلر ابتداء من عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ عندما بدأ يتضح أن ألمانيا منساقة إلى الهاوية ، فإن القلائل جداً منهم من تجرأ واعترض على تصرفاته أو عارضه فيها . وأقل منهم من تآمر لإسقاطه . والواقع أن يمين الولاء الذى أقسموه للفوهرر . والنظام العسكرى الذى جبلوا عليه . والخوف من الفشل على أنفسهم وعلى أسرهم ، وواجب الطاعة للرؤساء العسكريين فى دولة تخوض الحرب - كل ذلك لا يفسر كل ما حدث : أولاً لما أكده بعض الجنرالات فيما بعد الحرب من أنهم حتى لو كانوا قد تمردوا عليه لما أدرك أحد فى ألمانيا معنى لهذا التمرد . ولما اتبعهم فيه أحد لا من الجيش ولا من الجماهير . وكان فشل مؤامرة ٢٠ من يوليو مصداقاً لقولهم هذا .

ثم إن هناك أمراً لا يمكن إنكاره ، هو أن هتلر كان يمتلك نوعاً ما من القوى المغناطيسية ، كما كانت له قدرة عجيبة على الإيحاء . قيل عنها : إنها كانت تقنع أى إنسان حتى بما يكن موافقاً عليه .

وأخيراً فإن الإصرار من جانب حلفاء الغرب على ذلك المبدأ الذى يطالب بالاستسلام بدون قيد ولا شرط ، لم يكن من شأنه أن يشجع القادة الألمان على الإقدام على ما يلطخ شرف سيدهم أو ينال من كرامته . فتركوه يمضى فى تحمل مسئوليته إلى النهاية .

* * *

وقد قال هتلر ذات يوم وهو يتحدث عن الجنرالات : « إن هؤلاء السادة المتأنقين بشرائطهم الحمراء المزدوجة التى وضعوها على أفخاذهم ، يبعثون فى نفسى فى أغلب الأحيان شعوراً بالمقت والكراهية أعمق من الشعور بالحقد على اليهود ! . ذلك أن اليهود يعرفون على الأقل حقيقتهم ، فلا يزعمون أنهم جنود . أما هؤلاء الجنرالات فيطالبون فى إلحاح بحقهم فى احتكار الجندية » .

وقال يوما آخر : « إن هيئة أركان الحرب الألمانية آخر معقل للماسونية المتآمرة لم أدمره بعد ! » .

والواقع أن شعور الريبة وعدم الثقة لدى هتلر بالنسبة لجنرالاته – وهو الشعور الذى دخل فى مرحلة خطيرة ابتداء ١٩ – كان يخامره منذ استقر له المقام فى السلطة : وفى البداية عمد برغم نظرته إليهم باعتبارهم طبقة من العسكريين التقليديين تحمل على الشك ، وبرغم حرصه على إبعادهم عن مشروعاته – عمد من قبيل الضرورة إلى إحاطتهم بنوع من الاحترام مبالغ فيه .

فلما رأى عزوفهم إزاء مافرضه عليهم من إجراءات للإسراع بإعادة التسلح ، وهى الإجراءات التى كانوا يؤكدون عدم إمكان إنجازها ، وبعد ذلك نجاحه فى استعادة (رينانيا) برغم اعتراضاتهم ، وخوفهم من القوة العسكرية لفرنسا التى كان يعتبرها ضعيفة متهالكة ، ثم وقوفهم فى وجه سياسته الخارجية الهجومية مبررين ذلك بالخوف من ردود الفعل لدى فرنسا وبريطانيا – إذا به يجد فى كل هذا مايدعم إحساسه بأن هؤلاء الجنرالات انعدمت فيهم روح الجسارة ، والقدرة على التصور ، والمعرفة الواسعة لكل ماهو خارج تخصصاتهم .

ومنذ عام ١٩٣٧ لم يعد يقيم لآرائهم وزناً ، ولا يخشى شيئاً من ردود فعلهم ؛ إذ اقتنع اقتناعاً تاماً بأنهم سوف يسيرون وراءه إذا هو انتصر . وفى هذه الفترة بالذات نشأت فضيحة لا دخل له فيها على الإطلاق هيأت له الفرصة لكى يقضى على كل شعور بالزهو ناتج عن استقلال القيادات العسكرية :

وكانت هذه هى قصة الزواج الثانى للجنرال فون بلومبرج من إحدى السكرتيرات التى تبين أنها ذات ماض غير نظيف ، والتى أشرنا إليها فى القسم الثانى من الكتاب ، وانتهت بإخراج الجنرال من منصبه بعد تلطيخ ماضيه العسكرى ، والقضاء على جانب كبير مما كان لطبقة كبار القادة من نفوذ .

* * *

وبمثل هذا الأسلوب قضى هتلر على كل من بلومبرج وفريتش ، وهما أكبر قائدين فى الجيش الألمانى ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمامه لتقليم أظفار هذه الطبقة ، وهو الطريق الذى أدى إلى توليه القيادة العليا لجميع القوات المسلحة وإلغاء وزارة الحربية ، ووضع هيئة أركان الحرب تحت إمرته .

وابتداء من ذلك اليوم – أصبح الفوهرر كل شىء فى الجيش . وقد استقر فى روعة أنه قوة لا سبيل للوقوف أمامها . وشخصية لم يخلق أى إنسان ليحل محلها ! ومما يؤكد هذا الرأى أنه أبدى رغبته بعد استسلام بولندا ، فى أن يمضى فى الحرب ، فيضرب بأسرع ما يمكن فى الجبهة

الغربية برغم أن جميع جنرالات الجيش اعترضوا على ذلك ؛ إذ لم يكونوا يشاطرونه تفاؤله فيما يتعلق بتفوق القوات الألمانية ، بل يرون أنه من الأفضل التزام موقف الدفاع ، على أمل فى أن يؤدى الانتظار إلى تسوية مع فرنسا وبريطانيا .

فى يوم ٥ من نوفمبر ١٩٣٩ أعرب الجنرال فون براوشيتش باسم القوات البرية عن مخاوفه مما قد يسفر عنه الهجوم فى الغرب ، فإذا بهتلر يسخر منه علناً ، ويتهم الجنرالات بصفة عامة بالانهزامية والجبن ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يوجه فيها مثل هذه الإهانة إلى الجيش . وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً جمع كبار القادة ، وراح ينحو عليهم باللائمة ، ثم مضى قائلاً : « لقد كان عدد الذين وضعوا ثقتهم فىّ قليلاً إلى أن جاء بعد ذلك انتصارنا فى بوهيميا ومورافيا وبولندا . ولقد أدركت منذ البداية أننى لن أكتفى بإقليم السوديت ؛ إذ لم يكن إلا حلاً جزئيًا ، فاتخذت قرار غزو بوهيميا ، ثم بعد ذلك غزو بولندا . وقد يتهمنى البعض بأنى أريد الحرب ، وأنى أرغب دائماً فى القتال ، لكن القتال هو قدر جميع المخلوقات ، وما من أحد يستطيع تجنب النضال إذا لم يكن يريد أن يموت ! .

« لقد تحدد كل شىء طالما أن الوقت ملائم لنا ، فإذا انتظرنا ستة أشهر فإن كل شىء يمكن أن يتغير . وبكل تواضع أقول لكم : إنه ما من أحد آخر يمكن أن يحل محلى ، سواء كان عسكريًا أو مدنيًا . وإذ كان الوقت يعمل فى مصلحة أعدائنا فإننا يجب أن ننتهز فرصة ميل ميزان القوى لمصلحتنا ؛ لكى نوجه ضربتنا القاضية .

« إن قرارى هذا لا رجعة فيه ؛ فإننى أهاجم فرنسا فى أفضل الظروف الممكنة ، أما حياد بلجيكا وهولندا فليس لها أدنى أهمية ؛ إذ إنه ما من أحد سوف يلومنا بانتهاك هذا الحياد عندما ننتصر .

« إن كل أمل فى التسوية ضرب من لهو الأطفال ، وليس أمامنا إلا النصر أو الهزيمة . والمشكلة ليست فى قدر ألمانيا الوطنية الاشتراكية ، وإنما فى شخص الذى سوف يحكم أوربا فى المستقبل . إن حياتى ليس لها أى قيمة ، لقد سرت بالشعب الألمانى إلى بعيد حتى إذا كان العالم اليوم يحقد علينا فإننى أضع كل ما أقوم به فى ضربة حظ واحدة : ذلك أن علىّ أن أختار بين النصر أو الدمار ، وقد اخترت النصر . فإذا نحن خرجنا منتصرين من هذه الحرب ، ولسوف نتمكن من ذلك ، فسوف يدخل عصرنا هذا فى تاريخ شعبنا ، وسوف اخلق هذا

النصر ، أو أفنى دونه . ولن أعمل على هزيمة بلادى ، فلا تراجع أمام الأجنبى ، ولا ثورة فى الداخل » .

على أن هذا الخطاب لم يقنع الجنرالات ، ولم يخدعهم ، وعبثا عرض فون براوشيتش استقالته فى نهاية هذا المؤتمر ، ولكن الجميع خضعوا فى النهاية . وسارع عدد من أعضاء القيادة العامة — ومن بينهم الجنرال (هالدر) رئيس الأركان العامة الذين كانوا قد وعدوا بتأييدهم الضمنى لمؤامرة يدبرها الجنرال (بيك) — سارعوا إلى سحب هذا التأييد ، إذ أدرك الجنرالات جميعا أن رأيهم لا وزن له لدى هتلر ، إلا إذا هم شاركوه فى مشاعره وتطلعاته .

مناورات ألمانية جرت خلال عام ١٩٣٨ :
من اليسار إلى اليمين : فون بلومبرج ، والجنرال جودريان ، والجنرال فون فريتش يمتطى صهوة جواده

بعض قوات الجنرال مودل التى قامت بالهجوم فى روسيا وواجهت مقاومة عنيفة

الجنرال لودفيج بيك الذى كان رئيسا لهيئة الأركان العامة عام ١٩٣٥ . وقد تآمر قبل الحرب ضد هتلر ، فطرده عام ١٩٣٨ . وكان سيعين رئيساً للحكومة المؤقتة ، لو نجحت مؤامرة عام ١٩٤٤ .

الجنرال فون فيتزليبن الذى أحيل إلى الاستيداع عام ١٩٤٢ ، لأن هتلر كان يشك فى أنه يتآمر عليه . وكان سيعين قائداً عاماً للجيش الألمانى

المارشال فون كلوجه ، بعد إصابته فى روسيا وقد عين فى شهر يوليو ١٩٤٤ خلفاً لفون رونشتت ، الذى كان تشاؤمه مثار غضب هتلر وقد اكتشف أن من غير الممكن صد الحلفاء ، فانتحر بعد ذلك بشهرين .

في يوم ٢٩ من مارس ١٩٤٥ نقل جودريان (إلى اليسار) مهمته إلى الجنرال كريبس (الثاني من اليسار) ويقف هنا مع مودل والماريشال رونشتت (إلى اليمين).

القوات السوفيتية تتقدم إلى الجنوب من دانزيج ، وتدخل وارسو

obeikandl.com

الفصل التاسع والعشرون

الخطة الصفراء تنجح نجاحاً ساحقاً

فى اليوم العاشر من مايو ١٩٤٠ انتقل الجيش الألمانى لكى يهاجم الجبهة الغربية مقتحما بلجيكا وهولندا ، وما إن انقضت ثلاثة أيام حتى كان الجانب الأكبر من سلاح المدرعات قد عبر (الأردين) ، ووصل إلى نهر (الموز) ، واجتازه فى أقل من أربع وعشرين ساعة ، فأنزل بذلك ضربة قاصمة بمركز الجبهة الفرنسية .

وبعد أسبوع واحد طورت خلاله الدبابات الألمانية تقدمها إذا بها تصل إلى البحر عند (آبفيل) ، فأتمت بذلك ضرب الحصار حول الجيوش المتحالفة فى الشمال التى لم تجد مفرًا من اللجوء إلى عملية إخلاء متعجلة فى (دنكرك) .

وهكذا انتهت خطة القتال الألمانية التى عرفت باسم « الخطة الصفراء » بانتصار فاق كل الحدود .

والواقع أن التفكير فى تنفيذ هذه الخطة إنما يرجع إلى أربعين عاما إلى الوراء ، فلما تم تنفيذها كانت موضع تعليقات لا نهاية لها : فقد كثر التساؤل : هل واضعها هو هتلر بنفسه ، أو أنه قد استعار أفكار أحد القادة اللامعين من قيادة أركان حرب الجيش الألمانى ، هو الجنرال فون مانشتاين ؟ .

ومن حيث الواقع فإن « الخطة الصفراء » قد ظهرت إلى حيز الوجود يوم ٢٧ من سبتمبر ١٩٣٩ ، وهو اليوم نفسه الذى استسلمت فيه وارسو عاصمة بولندا ؛ ففى ذلك التاريخ استدعى هتلر إلى برلين قائد القوات البرية وهيئة أركان حربه ، وكانا الجنرالين براوشيتش وهالدر .

وبطريقته الحازمة المعتادة أبلغهما نيتَهُ فى الهجوم على الجبهة الغربية فور انتهاء تجميع الجيش الألمانى ، وإعداد وحداته الكبرى ؛ وهو ما يجب أن يتم يوم ١٢ من نوفمبر على الأكثر . على

أن الجنرالين اللذين كانا لايزالان متأثرين بذكريات حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وكانا مقتنعين بقيمة الجيش الفرنسى ضاعفا من اعتراضاتهما ، وقالا إنهما لا يعتقدان إمكان الحصول على نتيجة حاسمة فى هذه الجبهة . ولكى يصرفا هتلر عن هذا المشروع فإنهما راحا يلحان على نواحى النقص فى الجيش الألمانى ، بل أثارا القصور فى بعض الوحدات الذى اتضح فى بولندا .

لكن هذه الاعتراضات كان لها أثر عكسى مخالف لما كان متوقعاً . فقد انتفض هتلر غضباً ، وراح يندد بعجز القيادة العليا ، وأعلن أن قراره لا يمكن الرجوع فيه ، ووجه هجوماً عنيفاً على براوشيتش ، مما اضطره إلى الانسحاب منسحقاً ، وقد كاد يفقد أعصابه ، فعاد إلى مقر القيادة فى (زوسين) ، حيث ظل عدة أيام عاجزاً عن القيام بأى مجهود .

وبعد خمسة عشر يوما من ذلك أقدم هتلر على خطوة جديدة : فقد ألقى فى الرايخستاج خطاباً اقترح فيه تسوية سلمية لم تقبلها بريطانيا وفرنسا ، مما جعله يبعث إلى القيادة الألمانية العليا بنود أمره رقم ٦ الذى أكد فيه نيته على العمل قبل يوم ١٢ من نوفمبر ، ويقضى ذلك بقيام الجيش بهجوم ساحق عبر لوكسمبورج وبلجيكا وهولندا ، فيحتل مواقع من شأنها المضى فى الحرب فى أفضل الظروف ضد بريطانيا وفرنسا ، وطلب هتلر من جنرالاته أن يوافوه بخطه لذلك فى خلال أسبوعين ، بدلاً من ستة أسابيع .

وإذ اقتنع براوشيتش وهالدر بعدم جدوى معارضتهما ، فإنهما انصرفا إلى العمل ، وقدما يوم ١٩ من أكتوبر صيغة أولى لما سمى « الخطة الصفراء » ، التى أدخلت عليها بعض التعديلات ، وأصبحت فى مرحلة متطورة يوم ٢٩ . وعلى عكس ما يؤكد بصفة عامة فإن هذه الخطة ليست صورة طبق الأصل من خطة (شليفن) التى وضعت عام ١٩١٤ : ذلك أن هذه الخطة الأخيرة كان الهدف منها باستخدام جناح قوى متحرك من القوات الألمانية يقوم بعبور بلجيكا ، أن يزعزع ميسرة الفرنسيين التى لم تكن تتجاوز نهر (سامبر) ، وفى حركة واسعة تمكن القوات الألمانية من الإحاطة بمنطقة باريس ، وتتيح لها تدمير وسحق الجيش الفرنسى الذى تراجع إلى الحدود مع سويسرا .

أما « الخطة الصفراء » التى أعدت عام ١٩٣٩ وفقاً لتوجيهات هتلر ، فإنها كانت تقدم هدفا يقل عن الهدف الأول كثيرا : فقد كانت ترمى إلى إلقاء القوات الفرنسية والبريطانية إلى ما وراء نهر (السوم) ، وتأمين سيطرة الجيش الألمانى على الساحل البلجيكى حتى شمال فرنسا عند (دنكرك) . وكان هدفها المباشر ضمان حماية إقليم الرور ، وتمكين السلاح الجوى الألمانى من

الحصول على قواعد متميزة فى الصراع الجوى ضد بريطانيا ، وجعل الجيش فى وضع ملائم لاستمرار العمليات ضد فرنسا .

وعلى ذلك فإن الخطة لم تتضمن – على عكس خطة ١٩١٤ – أى معركة إبادة من شأنها اتخاذ قرار سريع . ويبدو أنهم اكتفوا فيها بإحداث صدمة على الجبهة .

* * *

وقد اشترك الجانب الأكبر من الجيش الألمانى بطبيعة الحال فى العملية : أى فرقتان ومائة فرقة منها : ٩ مدرعة ، و٦ ميكانيكية . وبينما كان على مجموعة الجيوش (ج) التى يقودها فون ليب اتخاذ موقف الدفاع فى مواجهة خط (ماجينو) وعلى طول نهر الراين ، كان الجهد الرئيس ملقى على عاتق مجموعة الجيوش (ب) التى يتولى قيادتها فون بوك . وعلى هذه المجموعة التى تتكون من ٤٣ فرقة وتضم أغلب الوحدات المدرعة أن تبدأ هجومها من عند نقطة واقعة شمالى لوكسمبورج فى منطقة (مايستريشت) ، ثم تتقدم بعد ذلك فى اتجاه شمال فرنسا عبر السهول البلجيكية .

أما مجموعة الجيوش (ا) التى يقودها فون رونشتت ولا تتجاوز ٢٢ فرقة ، فإنها توفر الحماية للجناح الأيسر لفون بوك . وبعد أن تجتاز لوكسمبورج والجزء البلجيكى من (الأردين) ، فإن عليها أن تمد جبهتها على خط يمتد من (لونجوى) إلى (لاون) .

وقد أعدت القيادة الألمانية قوة احتياطية تضم ١٩ فرقة ، منها فرقتان ميكانيكيتان .

ويقول الجنرال كيتل فى هذا الصدد : إن هتلر عندما أحاط علماً بهذه الخطة قال : « لقد انتعلتم حذاء (شليفن) ! ولكننا إذا تركنا ذلك جانباً ، نجد أنه لم يبد ساعتها أى اعتراض ، وكل ما قام به بناء على ما طالب به السلاح الجوى الألمانى الذى كان يخشى أن يستخدم السلاح الملكى البريطانى بعض المطارات الهولندية ، أنه قرر توسيع نطاق الهجوم بحيث يشمل كل هولندا .

غير أنه منذ اليوم التالى لتقديم الخطة الصفراء ، فسوف نرى أن هتلر أبدى تحفظات قدمها إلى القيادة العامة .

وفى داخل الجيش خرجت أولى الاعتراضات من جانب الجنرال فون مانشتاين رئيس الأركان وفون رونشتت : ففى مذكرة وجهها إلى رئيسه يوم ٣١ أكتوبر ، أشار إلى نقاط الضعف فى الخطة فقال : « إن النجاح الأولى الذى لاشك سنحققه على بلجيكا وعلى القوات

المتحالفة التى سوف تهب لنجدتها أمر مقبول . إلا أن النصر العام لا يتوقف على هذا النجاح الابتدائى ، وإنما يتوقف على تدمير قوات العدو فى مجموعها فى القتال ، سواء فى بلجيكا أو فى شمال (السوم) .

كان الاعتراض قويا ، وبدا منه أن « الخطة الصفراء » لا تؤدى إلى شىء حاسم ، ولكن مجرد تبديد شمل القوات الفرنسية والبريطانية . والأمر الذى بعث على قلق مانشتاين ، كان خطر حدوث هجوم مضاد . وهو يقول فى ذلك : « يتعين فى الوقت نفسه إحباط الهجوم المضاد الفرنسى الذى سيجىء حتماً آجلاً أم عاجلاً فى الاتجاه الجنوبى أو الجنوب الغربى » .

ولتلافى هذا الاحتمال فإن مانشتاين أدخل على الخطة تعديلات واسعة النطاق تضمنت فى طياتها بذرة الخطة النهائية . وكانت هذه التعديلات تقضى بأن تقوم مجموعة الجيوش (ا) وهى التى يقودها رونشتت ويتولى مانشتاين منصب رئيس أركانها - بنقل مركز ثقل العملية كلها إلى الجناح الجنوبى . وبعد أن تتمركز جنوبى (ليج) ، يتعين مده إلى ما وراء نهر (الوز) عند (نامور) وعلى محور (آراس - بولون) ، بحيث تقطع عند (السوم) كل ما سوف يغامر العدو بدفعه من قوات إلى بلجيكا ، وليس دفعه إلى نهر السوم .

وإذْ كان مانشتاين مقتنعاً تماماً بنظريته فإنه لم يكتف بالمذكرة الأولى ، بل قدم أربع مذكرات أخرى فى أيام ٢٦ ، ٣٠ نوفمبر ، وفى ٦ ، ١٨ من ديسمبر . وقد رفض فون براوشيتش وهالدر أخذ ما جاء فيها فى الاعتبار ، ولم يوافقا إلا على القيام بالخطة الأصلية ، إذ اعتقدا أن الأمر مناورة من جانب رونشتت ، لكى يعهد إليه بالدور الأول فى تنفيذ الخطة الصفراء بدلا من فون بوك .

صحيح أنه فى ذلك التاريخ - أى فى منتصف شهر ديسمبر - كانت الخطة الصفراء قد أدخلت عليها تعديلات هامة ، غير أنها لم تكن ترضى سوى المسئولين فى مجموعة الجيوش (ا) ، وقد أعدت هذه التعديلات عقب تدخل هتلر شخصيًّا . والواقع أنه ابتداء من آخر أكتوبر ، وبينما كان مانشتاين يطلع فون رونشتت على ملاحظاته ، بدأ الفوهرر من ناحيته يوجه انتقاداته إلى الخطة الصفراء . وقد قال فى ذلك للجنرال (جودل) ، رئيس العمليات ج : « لابد من جهد عقلى جديد ، لأنه ضرورى للخطة » .

° ° °

وفى يوم ٩ من نوفمبر اتخذ أول إجراء هام : فقد قرر أن ينقل من مجموعة الجيوش (ب)

إلى مجموعة الجيوش (ا) الفيلق التاسع عشر مدرعات الذى يقوده جودريان ويشمل فرقتين من قوات الدبابات ، وفرقة ميكانيكية ، ولواءين من القوات الخاصة . وكانت كلها تابعة لمجموعة الجيوش (ب) .

إن قوات جودريان هذه – وإن لم تتهيأ لها بعد الأهمية الحاسمة التى لن تلبث طويلاً أن تحظى بها – كانت بداية للمأساة الفرنسية : ذلك أنها بعد أن عبرت (الأردين) أصبحت تشكل رأس جسر على نهر (الموز) عند سيدان ، وبذلك سهل عليها أن تخلق الظروف الملائمة لمتابعة العمليات فى حالة عدم استطاعة الوحدات المدرعة فى مجموعة الجيوش (ب) التى يقودها فون بوك شق طريقها فى بلجيكا .

كان ذلك إذن هو الحل البديل ، ولكن للمرة الأولى – وبمبادرة من الفوهرر – فإن اسم (سيدان) ظهر فى خطة العمليات متصلاً باحتمال حدوث فجوة فى قلب الجبهة الفرنسية .

وفى يوم ٢٠ من نوفمبر قطع هتلر شوطاً آخر : فبينما كان لا يزال على غير علم بما يقترحه مانشتاين ، فإنه أمر القيادة العامة بالتنبؤ بالقوة التى سوف ينتقل إليها مركز ثقل الهجوم . وهذه لم تعد متمثلة فى مجموعة جيوش فون بوك ؛ وإنما فى مجموعة جيوش رونشتت . فما سبب هذا التعديل الكبير ؟

لقد كان هذا السبب ببساطة هو استعدادات العدو فى ذلك الوقت التى بدت كأنها تضمن تحقيق أقصى نجاح لمجموعة جيوش رونشتت . والواقع أنه منذ شهر أكتوبر ، وقع حدث رئيسى فى تاريخ الحرب فى الغرب : فبفضل إدارة فك الرموز الشفرية التابعة للجيش الألمانى ، أمكن معرفة جميع الشفرات السرية التى تستخدمها القيادة الفرنسية .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الألمان يقرءون جميع الاتصالات بين وزارة الحربية ومجموعات الجيوش الفرنسية والسلطات الداخلية . حتى الاتصالات التى كانت تتم مع شمالى أفريقيا وسوريا . . .

* * *

وقد ترتبت على كشف أسرار الشفرة الفرنسية نتيجتان رئيسيتان :

فقد أصبحت القيادة الألمانية تقف أولاً بأول على نواحى النقص فى تنظيم وتسليح القوات الفرنسية ، وهو الأمر الذى أزال الصورة المخيفة السابقة للعدو ، ودعمت الثقة لدى الألمان فى إمكان تنفيذ الهجوم فى الغرب . وكان فى ذلك ما أكد أحكام الفوهرر ورأيه عن فرنسا

وجيشها ، وهو ما كان يلقى معارضة من جنرالاته . ومرة أخرى استطاع ذلك « الأوميانى » المسوى أن يثبت لدى العسكريين المحترفين أنه يتمتع بقدرة على استقراء الأمور أكبر بكثير من قدراتهم .

وأخيراً فإنه عن طريق الاتصال اللاسلكى السرى ، أمكن للألمان متابعة أى تطور يحدث فى الإستراتيجية الفرنسية والبريطانية .

وابتداء من شهر أكتوبر كان الجنرال (جاملان) القائد العام للقوات الفرنسية والجنرال (جورج) قائد المسرح الشمالى الشرقى ، على استعداد للانتقال إلى ما وراء الجبهة الشمالية لنجدة الجيش البلجيكى ، وذلك فى حالة تكرار هجوم ألمانى شبيه بهجوم عام ١٩١٤ .

وكان هناك افتراض أول يقضى بدخول القوات الفرنسية بصورة محددة عند منطقة (ليسكو) يتيح ميزة إبعاد العدو عن الساحل البلجيكى ، وتأمين النشاط فى المنطقة الصناعية التى تشمل (دينان وفالانسيان وليل) ؛ غير أن الجبهة التى كان يتعين الدفاع عنها فى هذه الحالة كانت تتجاوز ٣٠٠ كيلو متر بدلا من ٢٧٠ كيلو متر فى حالة الارتكاز على الجبهة . وهكذا فإنه فى يوم ٢٤ من أكتوبر فكر الجنرال (جورج) فى نقل قواته إلى قلب بلجيكا على خط يقل عن ٢٤٠ كيلو متر ، ويمتد من (لوفان) إلى (نامور) . وكان ذلك ما أطلقت عليه القيادة الفرنسية اسم « حل ديل » الذى تمت الموافقة عليه يوم ١٤ من نوفمبر .

ومنذ ذلك الحين وضح جيداً أصل التعديل الكبير الذى أدخله هتلر على الخطة الصفراء : فلو أن الجانب الأكبر من قوات الحلفاء دخلت بغزارة إلى بلجيكا لأدى تنفيذ « الخطة الصفراء » التى تعتمد أساساً على مجموعة الجيوش (ب) إلى صدام مواجهة دامٍ غير معروف النتائج . وقد كان الدفع بمركز ثقل الحلفاء نحو الشمال هو الذى حتم على نحو ما تعديل مركز الثقل الألمانى . وبتوجيه الضربة على نهر (الموز) عند سيدان يمكن لمجموعة الجيوش (ب) أن تعثر على نقطة الضعف فى الدرع الفرنسى البريطانى .

وفضلاً عن ذلك فإن خطر وقوع هجوم مضاد يزول . والواقع أنه فى بداية نوفمبر عملت القيادة الفرنسية على أن تحرم نفسها من احتياطيها الإستراتيجى ، وذلك بأن نقلت الجيش السابع الذى يقوده الجنرال (جيرو) من منطقة (ريمز) إلى قطاع ليل – دنكرك .

وهكذا عرف الألمان أن كتلة قوات الصدام لدى الحلفاء قد أعدت انتظاراً لوقوع هجوم ألمانى على بلجيكا .

من هنا فإن الوقوف على السر الفرنسى . ومعرفة الاستعدادات الأخيرة للحلفاء . هما اللذان أديا بهتلر إلى وضع أسس الصيغة النهائية للخطة الصفراء التى أصبحت بالفعل تنطوى على بداية مأساة الغرب . التى وقعت فى مايو ١٩٤٠ .

غير أن ظروفاً خارجية هى التى ساعدت على هذا التطوير فى الخطة الصفراء : ذلك أنه نتيجة للأحوال الجوية غير الملائمة التى لا تسمح باستخدام سلاح الطيران الألمانى استخداماً كثيفاً . اضطروا إلى العدول عن العملية التى كان مقرراً لها يوم ١٢ من نوفمبر . ولو أنها وقعت فى ذلك اليوم لكانت المجابهة الرئيسية قد جرت فى بلجيكا . حيث كان الجنرال جاملان ينتظر . وربما كان من المحتمل أن ينهزم الحلفاء فى هذه المجابهة . ولكن هذه الهزيمة ما كانت لتحدث فى ستة أسابيع .

ولهذه الأسباب نفسها ، فإن الهجوم قد ألغى ثلاث عشر مرة متتالية حتى يوم ١٠ من يناير . وفى هذا اليوم أعلنت التوقعات الجوية وجود منطقة ذات ضغط عال فوق أوربا تمتد من الشمال إلى الغرب ، فأصدر هتلر الأمر ببدء الهجوم يوم ١٧ منه عند الفجر .

وفى هذا الوقت لم تكن التعديلات التى قررها هتلر يوم ٢٠ من نوفمبر قد نفذت بعد . وكان لا يزال على فون بوك بالفرق الخمس ومنها سبع مدرعة ، أن يقوم بالمجهود الأكبر . وظلت مهمة فون رونشتت هى حماية ميسرة العملية . ولكن مع احتمال مهاجمتها للميمنة والمؤخرة الفرنسية البريطانية ، وذلك إذا لقيت مجموعة الجيوش (ب) مقاومة أعنف مما ينتظر ، ولم يكن تحت إمرته سوى ٢٢ فرقة : اثنتان منها مدرعتان . مع احتمال تعزيز هذه القوة بقوات احتياطية قدرت بأربع عشرة فرقة ، منها فرقة واحدة مدرعة . واثنتان ميكانيكيتان ، إلا أن هذه الخطة لم يقدر لها أن تنفذ قط ؛ إذ إن الأحوال الجوية عادت لتتدهور من جديد ابتداء من ١٣ من يناير ؛ مما تعين معه تأجيل العملية إلى يوم ٢٠ . ثم أجلت بعد ذلك إلى الخريف .

بيد أن حدثاً آخر كان له وزنه فى القرار الحاسم بالإلغاء : ففى يوم ١٠ من يناير بالذات فقدت طائرة مواصلات ألمانية فى الضباب ، فاضطرت إلى الهبوط فى الأراضى البلجيكية بالقرب من (ميشلان – سور – موز) ، ولم يتمكن الميجور راينبرجر الذى كانت تقله وتحمل معه أمراً عاماً بعمليات اللواء الجوى الألمانى الثانى الذى تتبعه الفرقة السابعة مظلات من إتلاف كل الوثائق التى معه .

وقد نقلت هذه الوثائق إلى الجنرال فان أوفرتراينن القائد العام للجيش البلجيكى الذى

أبلغ محتوياتها القيادة الفرنسية . ولو أن هذه نظرت إليها على أنها خدعة ألمانية بعثت بها فى صورة وثائق تهبط من السماء ! غير أن ما تبقى سليماً من تلك الوثائق كان كافياً فى ذاته لتوقع حدوث هجوم كبير عبر بلجيكا مع الاستيلاء على حصون (لييج) والجسور المقامة على نهر (الموز) فى منطقة دينانت على أيدى الفرقة السابعة الألمانية مظلات . حتى تاريخ العملية كان مسجلاً بها ، وهو يوم ١٧ من يناير .

وقد قال فون كيتل فيما بعد : إن حادث الميجور راينبرجر جعل هتلر ينفجر فى إحدى غضباته العنيفة ، فراح يرمى أركان الحرب بالخيانة ، ولما لم يكن يعرف : هل الطيار قد وجد من الوقت ماسمح له بإتلاف الوثائق أولا ، فإنه رأى الأخذ بأسوء الافتراضات ، وهو أن الخطة قد انكشفت ، وعلى ذلك فإن تعديلات فورية أدخلت عليها . ومن ذلك أن تدخل القوات المحمولة جوًّا سوف يقتصر أساساً على المناطق القريبة من السهل الهولندى ، وعلى حصن (إيبن - إيماثيل) .

ولتجنب أخطار إفشاء ذلك ، فإن عمليات حشد القوات لن تحدث إلا فى يوم الهجوم أو اليوم الذى قبله مباشرة . على أن الأمر الأكثر أهمية هو أن حادث الطائرة قد أدى إلى إعادة النظر فى « الخطة الصفراء » التى اتخذت خلال بضعة أسابيع سمتها النهائية ، وذلك بمجابهة أفكار هتلر وآراء مانشتاين :

ذلك أن فون مانشتاين قد عاود يوم ١٢ من يناير حملته بمذكرة قدمها إلى فون رونشتت قال فيها : إن تعزيز مجموعة الجيوش (أ) بمدرعات فون جودريان غير كاف ، واقترح أن تضم المجموعة (أ) جيوشاً ثلاثة ، اثنان منها يؤمنان ميسرة الهجوم حتى نهر (اللواز) ويحولان دون وقوع أى هجوم فرنسى مضاد ، على حين يقوم الجيش الثالث تعززه عناصر مدرعة بتأمين عبور نهر (الموز) فيما بين دينانت وفوماى ، ثم يتقدم نحو (سان كنتان) ، لشل حركة ميمنة القوات المعادية المرابطة على نهر (السوم) . ثم أضاف مانشتاين قوله : « وعند ذلك فقط سوف تؤدى العملية إلى نصر نهائى على الجيش الفرنسى » .

وهكذا تحددت فكرة المناورة بمزيد من القوة ، والوضوح ، كما هى الحال فى مشروع هتلر : بأن تقوم مجموعة الجيوش (أ) بتحطيم قلب الجبهة الفرنسية ، وإيقاع القوات المتحالفة فى الشرك المنصوب لها فى بلجيكا . وسيكون على هذه المجموعة القيام بدور المطرقة ، أما المجموعة (ب) فتقوم بدور السندان .

ومرة أخرى رفض كل من فون براوشيتش هالدر رفع هذه المذكرة إلى هيئة أركان الحرب .

غير أن مشروع فون مانشتاين قد طرح يومى ٧ . ١٤ من فبراير خلال مناورات تدريبية جرت بحضور الجنرال هالدر ، وكان نجاحها فى اقتحام لمركز قلب العدو وميمنته قد اصطدم هو وعبور نهر (المور) ، وهو العائق الكبير المضاد للدبابات . وقال جودريان : إن هذا العائق يمكن اجتيازه فى خمسة أيام أو أربعة ، ولكن هالدر قرر أن هذا التقدير غير معقول ، لأنه لابد من تسعة أيام أو عشرة بعد الهجوم لتحقيق ذلك .

وفى الوقت الذى خيل فيه أن هذه القضية قد دفنت ، إذا بها تطفو على السطح وتفرض نفسها نهائيا نتيجة لمصادفة بحتة : ففى أواخر يناير كلف هتلر ياوره الخاص الكولونل (شمونت) بمهمة تفتيشية على الجبهة ، والتقى شمونت يوم ٣٠ فى كابلانس وفون مانشتاين الذى حدثه بطبيعة الحال عن فكرته ، فافتتن بها الكولونل وعاد إلى برلين متأثراً بها ، لأنه كما روى ضابط يدعى كابتن (إنجل) رأى فيها صيغة محددة لما يجرى فى ذهن الفوهرر .

وفى البداية لم يظهر ما يدل على أن هذا اللقاء سوف تكون له نتائج تالية . والواقع أن فون مانشتاين نقل يوم ٨ من فبراير وفقاً لحركة انتقالات أعدت منذ الخريف السابق من كابلانس إلى (شتاتن) ، ليتولى قيادة الفيلق الثامن والثلاثين ، وكان هذا النقل فى الحقيقة بمثابة محاولة مقنعة لإبعاده .

فهل نقل (شمونت) إلى هتلر حديثه مع فون مانشتاين ؟ على أى حال فإن مما ورد فى يوميات (جودل) ، أن هتلر قرر يوم ١٣ من فبراير تعزيز القوات الألمانية المرابطة فى مواجهة (سيدان) . وقد قال فى ذلك : إن العدو لا يتوقع أن يتلقى الصدمة الرئيسية فى هذه المنطقة .

وهكذا فإنه أمر بأن تؤخذ من مجموعة الجيوش (ب) فرقتان مدرعتان تضافان إلى مجموعة فون رونشتت الذى يحصل فوقها على فرقة دبابات تقتطع من الاحتياطى . وفى الوقت الذى تجسدت فيه لديه فكرة الاختراق الكثيف على نهر (الموز) ، التقى هو وفون مانشتاين .

وبينما كان الفوهرر يقيم حفل غداء يوم ١٧ من فبراير استقبل فيه قادة الألوية الجدد ، إذا به يحتجز فون مانشتاين فى مكتبه ، وفى سرعة أذهلت مانشتاين الذى كان لا يعلم شيئاً عن أن فكرة مشروع (سيدان) تدور فى رأس هتلر منذ عدة أسابيع ، راح يخوض فى الآراء التى أبداها منذ شهور عن مجموعة الجيوش (أ) ، ويوافقه عليها موافقة كاملة .

لقد كان هذا اللقاء – بالنسبة للفوهرر – بمثابة نقطة التنوير : فلقد وجد أخيراً جنرالاً يتفق تمام الاتفاق مع أفكاره . وقد أوضح مشروع مانشتاين تمام الإيضاح فكرة المناورة التى توصل إليها هو منذ نوفمبر ١٩٣٩ ، بغير أن يستطيع إعطاءها شكلها العلمى .

وقال مانشتاين : إن القرار لن يكون غرب نهر (الموز) ، وإنما على النهر نفسه فيما بين (سيدان) و(شارلفيل) .

ومنذ ذلك الوقت اتخذت الخطة الصفراء سمتها النهائية ، ثم جاءت توجيهات جديدة من هتلر أدخلت على مشروع مانشتاين ضاعفت من فرص نجاحه . وقد سار الفوهرر حتى النهاية فى فكرة المناورة ، فأضفى عليها قوة وأناقة ، كما كان يفعل نابليون .

وهدف الخطة الصفراء هو وضع أسس التدمير الكامل لمجموع القوات العسكرية للعدو . والضربة الرئيسية من الهجوم سوف توجه عبر كل من بلجيكا ولكسمبورج إلى الجنوب من خط يمتد من ليج إلى شارلروا .

وأصدر هتلر قراراً بأن تقوم مجموعة الجيوش (ب) التى يقودها فون بوك بالهجوم فى بلجيكا وجنوبى هولندا . وهذا الهجوم الثانوى فى تفكيره ، يتعين أن يبدو كأنه الهجوم الرئيسى على العدو بحيث يستقطب كل اهتمامه خلال الأيام الأولى ، وبذلك يجتذب الجزء الأكبر من القوات الفرنسية والبريطانية فى بلجيكا ، ويهيئ الحماية لميمنة المجموعة (ا) التى يقودها فون رونشتت الذى عليه القيام بالمجهود الرئيسى .

* * *

وجرى تقسيم القوات التى تشترك فى الخطة الصفراء ، ولكى تقوم مجموعة الجيوش التى يقودها فون بوك بدور (الطعم) فإنها خفضت إلى ٢٩ فرقة : منها ثلاث مدرعة ، أما المجموعة (ا) التى يقودها فون رونشتت فإنها حظيت بنصيب الأسد ، إذ ضمت ٤٥ فرقة : منها ٧ فرق دبابات ، وكانت مهمتها اجتياز (الأردين) ، والسير بحذاء نهر (الموز) ثم عبوره فيما بين (دينانت) و(سيدان) ، والانطلاق بعد ذلك فى اتجاه (سان كينتان) وما بعدها .

ولقد شعر فون براوشيتش وهالدر بنوع من الذهول عندما تناول هتلر قلماً أخضر اللون ، ورسم به محوراً للزحف أدى مباشرة إلى (آبفيل) ثم إلى البحر . وكان معنى ذلك أن رأس الحربة سوف يشكلها الفليق التاسع عشر الذى يقوده (جودريان) الذى كلف بعبور نهر (الموز) عند سيدان .

إن هتلر هو الذى أعد بنفسه عمليات صرف الأنظار التى من شأنها تحويل اهتمام الفرنسيين عن هذه المنطقة ، ومن ذلك حدوث إنزال جوى فى هولندا ، وعملية هبوط مظليين على قناة ألبرت ، وعلى حصن إيبن إيمائيل) ؛ بل إنه حتم عدم الإشارة فى البيانات الأولى إلى التقدم نحو دينانت وسيدان .

وحازت الخطة الصفراء فى شكلها الجديد موافقة عامة . وراح الجميع يعملون فى إعدادها النهائى ، وقد اشترك هتلر فى وضع تفاصيل العملية المحمولة جواً ضد (إيبن إيمائيل) .

وبناء على تدخله ، تقرر أن تنقل الدبابات الثقيلة من طرازى (مارك ٣) و(مارك ٤) إلى مجموعة الجيوش (أ) ، ويكتفى بتزويد مجموعة فون بوك بالمدرعات الخفيفة .

على أنه كان لا يزال هناك سؤالان لا يجدان الإجابة عليهما : الأول هو : هل ينوى العدو دخول بلجيكا ؟

لقد كانت الأنباء التى حصلت عليها المخابرات الألمانية تؤكد ذلك . ولكن المسألة ربما قد تؤجل فى آخر لحظة لأسباب سياسية . والذى حدث فعلاً أنها كانت موضع دراسة مفصلة يوم ٩ من أبريل ، فى لجنة الحرب الفرنسية البريطانية .

غير أن السؤال العصيب كان يدور حول الوقت الذى يستغرقه عبور نهر (الموز) : فلقد وعد جودريان بإتمام هذا العبور فى اليوم الخامس ، ثم أكده خلال مناورة جرت يوم ١٥ من مارس بحضور هتلر . وقد قال فى شرح ذلك : «لقد بينت فى اختصار أن القوات المدرعة سوف تتقدم فى ثلاثة طوابير عبر لكسمبورج وجنوب بلجيكا ، وأننى أنتوى بذلك الوصول إلى تحصينات الحدود البلجيكية واقتحامها إن أمكن فى اليوم الأول ، وفى اليوم الثانى أستمر فى الزحف إلى الأمام إلى ما بعد (نوف شاتل) ، وفى اليوم الثالث أجتاز نهر (سيموا) عند بويون) ، ثم أصل إلى نهر (الموز) فى اليوم الرابع ، وفى اليوم الخامس أقوم بالهجوم لعبور النهر . . » .

وعند ذلك لم يستطع هتلر أن يمنع نفسه من التساؤل : « وبعد ذلك . . فما الذى تنوى عمله ؟ » فأجاب جودريان : «سوف أستمر فى اليوم التالى مباشرة فى التقدم غرباً إذا لم يكن هناك أمر بعكس ذلك : إن على القيادة العليا أن تقرر ما إذا كان يتعين أن أتجه صوب (آميان) أو (باريس) ؟ وفى رأيى فإن أفضل وجهة هى (آميان) وبحر المانش » .

وصدق هتلر على ذلك . لكن الجنرال بوش قائد الجيش السادس عشر ، أعرب عن

مخاوف هيئة الأركان إذ قال : «لا أعتقد أنك ستصل إلى الضفة الأخرى من نهر (الموز) .

وفى غضب أجابه جودريان : «إن ذلك ما لا يطلب منك ! »

* * *

وهكذا فإنه حتى صباح يوم ١٠ من مايو لم تكن الخطة الصفراء سوى شىء غير مستقر ؛ ذلك أن كل شىء كان متوقفاً على ردود الفعل الإستراتيجية والتكتيكية للعدو : فهل من أجل تقصير جبهته سيدخل قواته إلى بلجيكا ، فيسقط بذلك فى الشرك ؟

وهل سوف تستسلم قوات مشاته التى جعلها ترابط خلف نهر (الموز) منذ تسعة أشهر أمام القوات الألمانية المدعمة بالدبابات والطائرات ؟

الواقع أن إله الحرب كان فى شهر مايو ١٩٤٠ الرائع ، يقف إلى جانب قوات الرايخ الثالث . فلقد جرى كل شىء ، فى سهولة مذهلة ، وتم تنفيذ الخطة الصفراء على أكمل وجه ، وفى دقة لم يكن هتلر ولا مانشستاين يتوقعانها .

فى يوم ١٠ من مايو ١٩٤٠ دخلت القوات الفرنسية والبريطانية بغزارة إلى بلجيكا ، مما جعل دموع الفرح تطفر من عينى هتلر ، وبعد ذلك فإنه ليس فى اليوم الخامس ولا الرابع ، وإنما فى اليوم الثالث فقط اجتازت الدروع الألمانية نهر (الموز) قبل أن تنطلق نحو الغرب بغير أن تلقى أى مقاومة جديرة بهذا الاسم .

فى أقل من أربعة أيام ، انفتحت ثغرة عظيمة عرضها ٧٥ كيلو متر فى قلب الجبهة الفرنسية ، وفى يوم ١٦ من مايو كان روميل بفرقة مدرعاته السابعة بالفعل فى (أفزنية) ، ووصل جودريان إلى (مونكونيه) على بعد أقل بخمسين كيلو متر من (لاون) ، فتبددت بذلك ثمانى فرق فرنسية كاملة .

وساد فى قيادة هتلر العامة فى (مونستريف) الحماس والقلق معاً : فقد كانت هناك فكرة تسيطر على النفوس تدور حول الوقت الذى سيقع فيه الهجوم الفرنسى المضاد والمكان الذى سيصل إليه ، وكان المتوقع أن يأتى هذا الهجوم من منطقة (ريمز – لاون) باستخدام الفرق التى تجلب من خط ماجينو ، ولذلك بادر الجنرال فون كليست يوم ١٦ من مايو – وهو قائد مجموعة الفرق المدرعة فى قوات فون رونشتت – بأن أصدر أمراً إلى قوات جودريان بالتوقف ، ثم عاد وصرح لها بالقيام بعمليات الاستكشاف ، أما هتلر فإنه كان ثائر الأعصاب إذ خيل إليه أن هذا التقدم الخاطف سوف ينتهى بكارثة .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث : فالقيادة الفرنسية قد اكتفت عملاً بالمفاهيم الإستراتيجية البالية ، بإقامة ستار رقيق من القوات على طول نهرى (ليزن) و(السوم) ، واحتفظت بأربعين فرقة فى خط ماجينو فى مواجهة الفرق الألمانية الثمانية من مجموعة جيوش الجنرال فون ليب التى كانت مهمتها الوحيدة بالذات هى استبقاء الفرنسيين فى مواقعهم .

ولم يكن هناك من شىء يبطئ من زحف الدبابات الألمانية : فوصل جودريان يوم ١٨ من مايو إلى (سان كينتان) ، وبعد أن عبرت (آميان) بلغت يوم ٢٠ (آبفيل) واقتحمتها ، وعند غروب شمس هذا اليوم وصلت إلى البحر .

ووقعت قوات الحلفاء فى الشمال فى الحصار ، وفى الأيام التالية استمر الزحف بدون مقاومة إلى (بولونى) و(كاليه) اللتين تم احتلالها يوم ٢٤ من مايو ، ثم أشرفت القوات المدرعة على (دنكرك) .

وعند ذلك تسمرت فى أماكنها بموجب أمر حاسم من هتلر .

* * *

لقد كان هذا الأمر – ومعه عبقرية الخطة الصفراء – موضع نقاش لا ينتهى عقب انتهاء الحرب . وتبعاً لأقوال ترددت ولكنها لا تثبت للفحص ، فإن الفوهرر بإصداره هذا الأمر إنما كان يريد القيام ببادرة طيبة تجاه بريطانيا .

فهو إذ يترك الباب مفتوحاً أمام خروج الجيش البريطانى من هذا الشرك ، كان يسعى لاكتساب رضاء الرأى العام والحكومة البريطانيتين بغية الوصول إلى تسوية سلمية فى الغرب .

وهناك رواية أخرى تقول : إن جورنج قد ناشد هتلر ، لكى يترك لسلاح الطيران الألمانى شرف توجيه الضربة القاضية إلى جيوش الحلفاء .

لكن الأمور فى الواقع مضت بطريقة أخرى : فقد اتخذ قرار إيقاف الدبابات الألمانية أمام (دنكرك) يوم ٢٤ من مايو ، الذى اتخذه هو فون رونشتت تحت تأثير من فون كلوجه قائد الجيش الرابع ، على زعم أن فرق المشاة التابعة لمجموعة الجيوش (ا) المرتبطة بجيوش فون بوك سوف تتم ضرب الحصار ، ومن ثم تدمر قوات الحلفاء .

وكان هذا الإجراء سيتيح تجميع وضم صفوف مدرعات مجموعتى الجيوش فى شمالى فرنسا تمهيداً للمرحلة الثانية من المعركة ، وهى عملية (روت) التى تقضى بالاتجاه نحو الجنوب . أما هتلر فإنه لم يفعل إلا أن صدق على قرار فون رونشتت ، وكان ذلك خلال زيارة قام بها فجأة

الجمالات جودريان وضباط أركان حربه

ومما قاله : « إن فظاعة البرد فى روسيا قد كلفت القوات الألمانية من الرجال ضعف من وقعوا ضحايا لنيران العدو

وكل من زار المستشفيات التى امتلأت بالرجال الذين تجمدت أطرافهم ، يعرف ما الذى يعنيه ذلك »

الجنرالان دينريش وهيملر من قوات العاصفة الألمانية . كانا على عكس الجنرالات التقليديين البروسيين ، يريان أن الإخلاص لمتطر هو الأصل فى كل شئ .

وقد أطلق سراحه عام ١٩٥٥ ، ثم سجن ١٨ شهراً أخرى لأنه اشترك قبل ٢٣ عاماً فى عملية (ليلة السكاكين الطويلة). ويبدو هنا إلى اليسار عام ١٩٥٩ خلال احتفال للمحاربين الألمان القدماء

يوم ٢٤ من مايو للقيادة العامة لمجموعة الجيوش (أ) فى (شارلفيل)، حيث كال المديح لفون رونشتت وأركان حربه.

على أن الأمر الصادر فى ٢٤ من مايو كان لابد أن يثير عاصفة فى هيئة الأركان العامة، فراح براوشيتش يوجه اللوم إلى هتلر على أنه قد اعترض المناورة التى يجرى تنفيذها، وكان من شأنها سحق قوات الحلفاء التى ستطبق عليها كماشة هائلة أحد طرفيها جيوش فون بوك التى تقوم بدور السندان، والقوات المدرعة التى ستحول دون وصول العدو إلى الساحل.

وإذ أدرك هتلر أنه وافق على قرار خاطئ، فإنه سحب موافقته فى اليوم التالى، وأطلق حرية التصرف للقوات المدرعة، ولكن الوقت كان قد فات؛ لأن الإنجليز انتهزوا فرصة هذا التوقف، فاحتلوا أطراف (دنكرك) ودعموها دعماً قوياً، فأمنوا بذلك جلاء قوات بلغ عددها ٣٣٨٠٠٠ رجل، منهم ١١٣٠٠٠ فرنسى.

فهل لعب قرار ٢٤ من مايو التعس دوراً حاسماً فى مصير الحرب؟ وهل كان يمكن لإيقاع جميع أفراد الحملة البريطانية فى الأسر، أن يؤدى إلى سقوط بريطانيا؟

ومع فداحة الخطأ الذى وقع فيه الألمان الذين أضاعوا هذه الفرصة الثمينة، فإنه ما من حجة حربية تؤيد مثل هذا الافتراض: ذلك أنه فى عام ١٩٤٠ كانت البحرية والطيران هما اللذان أنقذا بريطانيا من الغزو. وما كان لاعتقال مائتى ألف بريطانى فى شمالى فرنسا بقادر إلا على أن يحدث جرحاً فى الكرامة البريطانية، وفى هذه النقطة بالذات يتبدى الضعف الوحيد فى «الخطة الصفراء».

لقد كان لهذه الخطة طابع مقصور على القارة، فما كان يمكن أن يحل إلا جزئيا المشكلة فى الغرب. وما إن انهار الجيش الفرنسى، حتى وجد الرايخ الثالث نفسه وجهاً لوجه أمام بريطانيا.

الفصل الثلاثون

موسكو . . لا تراجع على الإطلاق

لقد كان الفشل الذى انتهى إليه الألمان أمام موسكو فى شهر ديسمبر ١٩٤١ نقطة تحول فى العلاقات بين أدولف هتلر وبين جنرالاته ، بل فى سلوك الفوهرر التكتيكى والإستراتيجى بوصفه القائد الأعلى للقوات الألمانية المسلحة .

ومن المعروف أن هتلر الذى كان معنيًّا أشد العناية ، ومهتمًّا أكبر ما يكون الاهتمام بالاستيلاء على لنجراد ، وبصفة خاصة بغزو مدينة كييف ، ووضع يده على أوكرانيا الثرية ، عمل على تأجيل الزحف على موسكو ، وهو الزحف الذى كانت تقوم به مجموعة جيوش الوسط التى كان يتولى قيادتها المارشال فون بوك .

وقد كان هذا التأجيل على غير موافقة من القائد العام فون براوشيتش ، وكذلك رئيس الأركان الجنرال هالدر . وفون بوك نفسه ، فضلاً عن اثنين من قادة القوات المدرعة هما هوث وجودريان .

وفيما بعد ، قال هالدر : إنه لو قدر للقوات الألمانية أن تتجه فى زحفها رأساً إلى موسكو — لكان فى ذلك الهزيمة الحاسمة للروس . لكن هتلر لم يصدر أمره إلى فون بوك لاستئناف تقدمه إلا يوم ٢ من أكتوبر بعد توقف استمر شهرين ، وهو توقف كان فى الحقيقة قاتلاً بالنسبة لألمانيا : فلقد امتنعت موسكو على الجيش الألمانى ، ومع ذلك فإن الفوهرر الذى لم يساوره الشك قط فيما يتعلق بالمستقبل وفيما يتعلق بكفاياته الخاصة ، راح يبحث فى هذه الهزيمة عن اتهامات يوجهها إلى جنرالاته ، ويتلمس أسبابا يرجعها إلى عدم ثقتهم به .

* * *

وعندما تساقط الجليد للمرة الأولى فى عام ١٩٤١ ، فغطى جبهة القتال المترامية الأطراف من عند نهر الفولجا حتى أوكرانيا . فإن الجيش الألمانى الذى يدين بالولاء لهتلر وجد نفسه فجأة

- بعد ثلاثة أشهر من الانتصارات التى لم تنقطع ، وقد تجمدت أطرافه تحت زمجرة الرياح المثلجة ، فلم يعد كما قال الجنرال فريتس بايرلاين الذى أصبح فيما بعد رئيساً لأركان حرب روميل إلا شبحاً لآلة حربية بشعة تتقدم بسرعة من يسير على قدميه !

كان ذلك أولى النتائج القاتلة لتأخير تنفيذ خطة « باروسا » أو « ذو اللحية الحمراء » التى وضعت أساساً لغزو روسيا السوفيتية ، وبدئ فى تنفيذها ليلة ٢٢ من يونية السابق .

فقد صدر قرار الهجوم فى الشرق يوم الأحد ٢٢ من يونية ١٩٤١ ، وهو يوافق ذكرى هجوم نابليون على روسيا عام ١٨١٢ ، ولم يكن اختيار هذا الموعد راجعاً لهتلر الذى كان منذ عام ١٩٤٠ قد حدد له يوم ١٥ من مايو ، لكى تنتهى العمليات فى شهر أغسطس قبل هطول أمطار الخريف ومجىء الشتاء الروسى .

غير أنه بعد الهزائم التى حاقت بموسولينى فى اليونان ، اضطر الجيش الألمانى أن يهب لنجدة الحليف الإيطالى ، كما فعل من قبل فى أفريقيا ، فهاجم يوغوسلافيا ، وزحف عبر البلقان ، وفى يوم ٢٧ من مارس اتخذ هتلر قراره ، ألا وهو تأجيل عملية « ذو اللحية الحمراء » لمدة أربع أسابيع أى إلى ١٥ من يونية .

وفى اليوم السابع عشر من هذا الشهر كان ثلاثة ملايين رجل (١٤٩ فرقة منها ١٩ مدرعة و١٧ ميكانيكية) يحتشدون عند الحدود الألمانية السوفيتية ، ولم يعودوا ينتظرون سوى إشارة البدء التى جاءت فى ساعة متأخرة من مساء السبت ٢١ من يونية ؛ لكى يبدأ الغزو مع فجر اليوم التالى .

وخلال ثلاثة أشهر ، وتحت الضربات القاصمة التى أنزلتها القوات المدرعة التى يقودها جودريان ، وهوث ، وإينهارت ، وفون كليست - سقطت مدينتا كييف وسمولنسك ، واقتحمت أوديسا ، واحتلت جوميل ، ووطئ الجنود الألمان بأقدامهم أوكرانيا وجاسوا خلالها ، فأحرقوا محصولاتها ، ودمروا مخازن غلالها ، وأغرقوا مناجمها ، وهدموا محطات توليد الكهرباء المائية فيها ، وهى التى كان نظام الحكم السوفيتى يفخر بها .

وجرى كذلك احتلال ليتونيا وإستونيا ، واقتربت القوات الهتلرية من خليج فنلندا ومدينة (بيترهوف) ، وهى المقر القديم للقياصرة جنوبى كرونستات ، وأصبحوا يهددون لننجراد ، المدينة المقدسة لثورة أكتوبر .

* * *

على أنه كانت هناك حقيقة واقعة : هى أنه كلما مرت الأسابيع ازداد الشعور بالمتطلبات المأساوية لهذا الصراع ضد الزمن : ذلك أن التأخير الذى حدث فى البداية لأكثر من شهر ، بالنسبة لتوقعات الخطط التى وضعتها هيئة أركان الحرب ، لم يمكن تعويضه .

وفى الغرب كان السلام مع بريطانيا الذى قيل إنهم واصلون إليه حتماً ، لا يزال بعيداً تماماً ، وعند الناحية القصوى من أوربا ، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من برلين ، بدأ يطلق على غزو الاتحاد السوفيتى اسم «معركة روسيا» و«الجبهة الشرقية» .

وكلما تقدمت الجيوش الجرارة المنتصرة وسط معدات الغزو متجهة نحو موسكو أخذت تلهث وتتبدد قواها من طول الطريق ، ليس من ثقل الخسائر فى أرواح أفرادها الذين لم يكن قد سقط منهم منذ سبتمبر ١٩٣٩ سوى ١٥٠ ٠٠٠ قتيل ؛ وإنما من جراء هذا السباق الذى لا يزال عليها أن تقطع فيه آلاف الكيلومترات .

إن ذلك الفضاء الرومى البربرى العملاق الذى يمتص أطنان الوقود ، كان يتلف محركات الدبابات ، ويستهلك عجلات العربات ، ويضنى المقاتلين . وعلى حين فجأة أصبحت الشمس فى برودة الرصاص ، وذلك الغبار الذى يعمى العيون ويهب من السهول ، إذا به يتوقف ، ويترك مكانه لأيام صافية ، وإذا بالليل يسرع فى الهبوط ، ويتأخر النهار فى الطلوع !

وكان فريتس بايرلاين يقف كل مساء على رأس فيلقه المدرع التاسع والثلاثين ، ويتطلع فى رهبة إلى تراكم السحب السوداء وهى تجرى قادمة من الشرق ، ثم تغطى صفحة السماء .

وتتراح هذه السحب الثقيلة أمام لفحات قاسية من الرياح الباردة ، ثم بدأت فى النصف الأول من شهر سبتمبر أمطار غزيرة تنهمر كأنها سيول لا تنقطع . وعند ذلك تغير كل شىء .

فقد كانت الدبابات الثقيلة من طراز (مارك ٣) و (مارك ٤) تنسحب من المعارك ؛ لكى تنتزع من الطين عربات المشاة ، وسيارات الاستطلاع ، والدراجات البخارية ، وعربات الإسعاف ؛ إذ كان قد حل موسم الوحل اللزج الذى يغوص فيه كل شىء ، فى هذه البلاد الواسعة التى لا طرق فيها .

وحتى أولئك الذين لم يكونوا يعرفون روسيا إلا عن طريق السماع أو قراءة قصص تولستوى وتورجنيف – فإنهم سواء كانوا من الجنرالات أو من الجنود البسطاء – بدءوا يستشعرون ما لم يزل فى انتظارهم ! وقد ترك الجنرال جونتر بلومنتريت قائد الجيش الرابع وراءه مذكرات قال فيها : « لقد كان المارشال فون كلوجه يضطر – عندما يذهب ليلقى نظرة على الخرائط – أن

يخوض إلى ركبتيه فى الوحل الذى غطى المسافة الصغيرة التى تفصل غرفته عن مكتبه . وقد كان يحمل فى يده بصفة دائمة كتاباً لا يتركه أبدا ، هو كتاب «يوميات كولانكور» .

وقد أصبحت هذه الحقيقة ملموسة فى فجر يوم الثلاثاء الموافق ٧ من أكتوبر :

ذلك أنه طوال تلك الليلة كانت هبات الرياح الباردة كالثلج تكتسح الأراضى الفضاء التى لا حدود لها ، فلما طلع النهار رأى المسئولون عن القطاع مالم يعد يعتبر مفاجأة منذ وقت طويل بالنسبة للجنود أو للحراس فى المواقع المتقدمة : فقد كان هناك بساط من الثلوج البيضاء يغطى كل أرض المعركة ، على حين هبطت حرارة الجو هبوطاً شديداً .

وفى نفس ذلك اليوم السابع من أكتوبر ، تهيأ مارشال فى الجيش الألمانى تجردت كتفاه من علامات رتبته ، وبدا طويل القامة رشيقها ، وأطل من وجهه أنف مستطيل ، تهيأ لتنفيذ الأوامر التى تلقاها من رئيسه المباشر فى القيادة العليا فى (راستنبورج) ، هو فالتر فون براوشيتش القائد العام للجيش الألمانى .

بيد أن براوشيتش نفسه لم يكن فى الحقيقة إلا منفذاً ، أما الرجل الذى كان مكلفاً بإنجاز تعلياته – من أجل المعركة الأخيرة التى سوف تقرر إبادة روسيا السوفيتية – فلم يكن سوى أدولف هتلر .

* * *

كانت القوات التى تجمعت تحت قيادة المارشال ذى الأنف المستطيل وشعر الرأس المحلوق على الطريقة البروسية ، تشكل أكبر قوة جمعت من أجل معركة واحدة على الجبهة الشرقية : فقد ضمت ٧٨ فرقة على أهبة خوض الحرب بلغ مجموعها مليونا ونصف المليون من الجنود الألمان مستعدين جميعا للهجوم .

وكان اسم هذا المارشال فيدور فون بوك ، والهدف الذى على هذا الحشد الهائل أن ينجزه قبل نهاية هذا العام ١٩٤١ يتلخص فى كلمة واحدة هى : موسكو :

أما الاسم الرمزى الذى وقع عليه الاختيار ليشير إلى هجوم فون بوك على عاصمة السوفيت ، فلم يكن يترك أى مجال للشك فيما كان مفروغاً منه من هذه المعركة الكبرى الحاسمة فى القيادة العليا فى بروسيا الشرقية . وهذا الاسم هو : « الإعصار » .

وإذْ تصدى جيش فون بوك الضخم لفصل الشتاء القاتل ، فإنه تخلخل تحت تلك السماء التى كادت تطبق على الأرض ، بينما هو ينتزع النصر تلو النصر من القدر ، ومن زوابع

الثلوج ، والأمطار الباردة والوحل !

وفى مساء يوم ٨ من أكتوبر كان هذا الجيش قد استولى على مدينة (أوريل) التى إلى الجنوب الغربى من موسكو ، وفى اليوم التالى كان الدور على مدينة (فيازما) التى تبعد مائتى كيلومتر عن العاصمة . وفيما بين فيازما وبريانسك فى الجنوب ، انغلق الشرك على جيشين روسيين حوصرا تماماً .

وفى يوم ١٢ من أكتوبر سقطت مدينة بريانسك . وفى هذا اليوم نفسه حدث عندما اجتاز الكولونل جنرال إريش هوبنر ودباباته من الجيش الرابع المدرع نهر (أوجرا) – وهو آخر الأنهار قبل موسكو – تركت ثلاث فرق روسية وراءها كل مدافعها وعتادها على ضفاف النهر ولاذت بالفرار ، وراح ٦٦٣٠٠٠ أسير روسى يهيمون على وجوههم فى السهول ، تطاردهم طائرات السلاح الجوى الألمانى .

وفى الشمال والغرب والجنوب أخذت الحلقة تضيق ، وفى صورة التقطتها إدارة الدعاية التابعة لقوات العاصفة ، لتكون دليلا على الأهمية التاريخية للقتال فى ذلك اليوم ، ظهرت (لوحة) مدفونة إلى نصفها فى الثلوج وطليت باللونين الأسود والأحمر وقد كتب عليها : إلى موسكو ١٠٠ كيلو متر !

كان ذلك يوم ١٤ من أكتوبر ، وفيه أصبح الطريق مفتوحاً إلى الكرملين .

بيد أن الأوامر المعطاة للقوات ، والهدف الذى تحدد لذلك المليون ونصف المليون من الجنود ، بما فيهم خمسة وعشرون جنرالا واثنان من مارشالات الرايخ – لم تكن لتكفى الجميع . وقد قرر فون بوك تجاهل ذلك ، أما جنرالاته فلم يستطيعوه .

فوراء الجنرالات آلاف من الضباط ، ومئات من قادة الألوية ، وعشرات من الرتب الكبيرة ، ثم أكثر من المليون من المحاربين الألمان ، الذين استمروا فى القتال وهم يرتدون الثياب الخفيفة التى جاءوا بها عند بدء الغزو ، وأمام الجميع أقسى شتاء عرفته روسيا ، منذ مائة وثلاثين عاماً .

ولقد ظهر الجليد للمرة الأولى ليلة ٤ من نوفمبر ، وبعد ذلك أخذ مقياس الحرارة ينخفض بدون انقطاع ، حتى بلغ ٣٤ درجة مئوية تحت الصفر فى أواخر الشهر . وخلال الأيام التالية انقض الصقيع القطبى ، فهبطت الحرارة إلى ٥٢ درجة تحت الصفر .

وأخذ جحيم من الظلام والموت يدفن فى طياته الجيش الألمانى بأكمله ، وتضاءلت

ساعات النهار بصورة مروعة حتى أصبحت مثل نصف اليوم العادى ، وتكاثف الظلام وانتشر أكثر من ذى قبل ، وظل على ذلك أكثر من أربع عشر ساعة فى اليوم .

أما قتلى الجيش الألمانى الذين كان عددهم من بداية الحرب فى عام ١٩٣٩ حتى بداية الحرب فى الشرق ١٥٠٠٠٠ ، إذا بعددهم يرتفع إلى ٧٠٠٠٠٠ يوم ١٣ من نوفمبر ، ثم إلى ٧٤٣٠٠٠ يوم ٢٦ ، كما جاء فى (يوميات) فريتش هالدر رئيس أركان حرب القوات الألمانية الذى أوضح أن أكثر من نصف هؤلاء القتلى كانوا بسبب التجمد .

* * *

وبرغم ذلك فإن السباق النهائى كان يقترب من غايته : ففى جو هبطت حرارته إلى ٣٠ درجة تحت الصفر فى صباح يوم الجمعة ٥ من ديسمبر ، تمكنت دوريات الاستطلاع التابعة للفرقة الثانية المدرعة التى يقودها الجنرال (فايل) من الوصول إلى المحطة النهائية للترام فى موسكو ، على بعد ساعة من محطة « الميدان الأحمر » ، وفى المكان الذى تستدير فيه عربات الترام ؛ لتعود إلى المدينة .

لم يكن الروس ولا الألمان يستطيعون معرفة ذلك ، إلا أن جنود أدولف هتلر لم يغامروا بالذهاب إلى أبعد منه .

وفجأة – وفى جو بلغت حرارته ٣٨ درجة تحت الصفر – توقف الهجوم الكبير . فبينما كانت جيوش فون كلوجه ، وهوبنر ، وهوث ، والفرق الاثنتا عشرة التى قاست كثيراً ويقودها جودريان ، هذه الجيوش التى أنهكتها الأوامر المحمومة المتدفقة عليها من القيادة العامة البعيدة فى (أورشا) ، حيث مقر قيادة فون بوك ، أو من مكان أبعد من ذلك يبعث بها كل ساعة براوشيتش أو هالدر او جودل إن لم تكن قادمة من هتلر نفسه – هذه الجيوش قد حاولت بقدر ما تستطيع أن تنفض عن نفسها شعور البؤس وقشعريرة البرد ؛ لكى تنطلق فى آخر هجوم لها ، وتوجه الضربة الحاسمة .

فلما كانت الليلة الرابعة والستون بعد المائة ، منذ بدأت معركة روسيا ، إذا بها تفاجأ بأن شيئاً ما قد تغير ، وأن حدثاً جديداً قد وقع :

ذلك أنه من بين طيات الظلام المثلجة ، أخذت المدفعية السوفيتية ترج الفضاء على طول الجبهة نصف الدائرية التى بلغت ٣٢٠ كيلومتر وتحيط بالعاصمة المحاصرة ، ثم جاء الفجر ، وظهر معه كأنما جاء من العدم جيش يضم آلاف الآلاف من الأشباح البيضاء ، كما لو كان

السهل كله قد بدأ يزحف ويتحرك !

هذه الأشباح المتدثرة فى معاطف فى لون الجليد ، وفى أقدامها وعلى رءوسها أحذية طويلة وأغطية رأس مبطنة بالفراء استولت على ميدان المعركة ، وأصبحت ملتصقة به ، وراحت تطلق أسلحتها وهى فى حمى ثيابها الثقيلة من برودة الشتاء .

إنها القوات السيبيرية ، الاحتياطى الأخير للجيش الأحمر ، جرى تجنيدها فى (ترانسبا لكاليا) ، وجىء بها من أقاليم نهرى (آمور) و(أوسورى) عند حدود اليابان وروسيا الآسيوية . وتحت إمرة جنرال فى الخامسة والأربعين من عمره يدعى (جورجى زوكوف) ، جاءت ١٨ فرقة جديدة من المشاة والفرسان تؤيدها ٨ ألوية سيبيرية مدرعة ، لنجدة القوات السوفيتية المسلحة عند جبهة موسكو .

وأصيب الجيش الألمانى بينما كان على بعد عشرين كيلو متر من هدفه بصدمة مروعة ، فبدأت قوات فون بوك تتراجع فى أغلب القطاعات ، وحتى جودريان الذى كان على بعد ١٤٠ كيلومتر إلى الجنوب من موسكو اضطر ليلة ٦ من ديسمبر أن يتخذ أكثر القرارات مرارة فى حياته كجندى : فقد أصدر هذا الرجل الذى جعل من المدرعات أداة حاسمة فى انتصارات الرايخ الكبرى أمراً بالانسحاب من أمام مدينة (تولا) .

ولم يكن جودريان وحده الذى فعل ذلك : فمن الشمال إلى الجنوب ، وفى صميم الشتاء الوحشى وعبر حقول الجليد حيث ابتلع جيش نابليون من قبل ، أخذ خمسة وثلاثون جنرالا ألمانيا يخرجون على التعاليم التى وجهتها إليهم القيادة العليا فى (راستنبورج) ، والتى كانت تقضى بعدم التخلى عن شبر واحد من الأرض الروسية التى تم غزوها ، والدفاع عنها حتى الموت .

وقد أحيط هتلر علما بالتقارير الواردة من جبهة موسكو ، بينما كان فى مؤتمر عسكرى عقد فى صباح اليوم التالى الموافق الأحد ٧ من ديسمبر .

كان فالترفون براوشيتش الذى استشعر مقدما الكارثة قد ناشد هتلر عدة مرات ؛ لكى يعفيه من القيادة . وقبل ذلك بثلاثة أسابيع ألمت به نزلة قلبية أقعدته عن الحركة . فلم يعد سوى شبح رجل ، وخيال لما كان عليه ! فلما جاءت الأنباء إلى القيادة العليا هتلر . تأجلت إلى ما بعد مسألة صحة القائد العام للجيش .

وفى روسيا نفسها لم يكن فون بوك الرجل الذى اختير ليكون قاهر موسكو ، بأحسن من

ذلك حالا : فقد داهمته آلام فظيعة فى معدته جعلته لا يعرف طعم الراحة ، وإذ كانت أجهزة تليفوناته فى متناول يده دائماً فإنه كان يصغى إلى فرانس هالدر وهو يكرر قوله : « هجمة أخرى يا بوك ، ثم ينتهى كل شىء ، ونحرز النصر ! »

غير أن فون بوك رد عليه يوم الأول من ديسمبر بأن قواته قد أصبحت فعلاً فى النفس الأخير ! وأنها قد تجمدت ! وأنه لن يمضى وقت طويل حتى يكون من المستحيل عليها أن تتحرك .

وفى يوم ٣ من ديسمبر راح المارشا فون بوك يحذر القيادة بصوت وضح فيه الكلل قائلا : « إن الوقت يقترب يا هالدر الذى سوف يسقط فيه جنودى موتى من فرط الإرهاق . . ! »

ومن على بعد ١٥٠٠ كيلومتر من الجبهة أجابه رئيس هيئة الأركان فقال : « تشجع يا سيدى المارشال ، إن أفضل طريقة للدفاع كما تعلم إنما هى الهجوم ! » .

بيد أن هالدر نفسه كان يعلم بدوره أن ما يحدث فى (كالينين) وفى (كلين) ، حيث الحرارة هبطت إلى ٣٥ درجة تحت الصفر – أمر آخر ، وأن ساعة اتخاذ القرارات الخطيرة فى هذه الحرب قد حانت . وفى المذكرات الخاصة التى تركها فرانس هالدر وراءه ، وظلت سراً حتى آخر الحرب – وردت العبارة التالية التى تبعث على الذهول : « إن ذلك الوهم الذى كان يساورنا من أن العنصر الجرمانى لا يقهر – قد زال تماماً ! » .

ولكن هذا الوهم كان لا يزال مستقرا تماماً فى قلب رجل واحد على الأقل ، مختلطا بكل ما فيه من غطرسة وعجرفة بكل كيانه . إن العشرات من الجنرالات الذين أداروا ظهورهم لما قاموا به من فتوح ، وكذلك عدد من قادة الجيوش الألمان ، مثل جودريان وهوبنر وسبونيك وفون رونشتت نفسه ، إذْ لم يعودوا يرون أمامهم سوى قواتهم المنسحقة المحطمة ، فإنهم أصدروا أوامرهم بالإنسحاب ، لكى ينقذوا العشرات والمئات من الألوف من جنود الجيش الألمانى .

أما أدولف هتلر ، فإنه راح ينظر إلى الأمر نظرة متناقضة تماماً ، هى أنه مهما حدث فإن الجبهة الشرقية يتحتم أن تصمد ، وألا تتراجع أبدا كائنا ما كان الثمن ! ذلك أن الجيش الألمانى برغم الجراح التى نزلت به لا يزال قوياً كبير العدد مسلحا يبعث الخوف فى النفوس .

أما « انسحاب الشتاء » بالصورة التى يفكر بها عدد كبير من جنرالات الجبهة بهدف الإنتظار حتى ربيع العام التالى ١٩٤٢ فى مواقع إستراتيجية أكثر ملاءمة ، فإنه يعرض الجيش الألمانى للهجمات عبر سهول الثلوج ، وسيكون هذا الجيش حينئذ معرضا لضربات العدو تحت

عواصف الرياح الباردة والجليد بأكثر ألف مرة مما يتعرض له إذا هو حفر خنادق له فى مواقعه الحالية ، حول المدن والقرى التى يتعين أن يتشبث بها بأى ثمن . فتصبح له معاقل برغم قصف القنابل وهجمات الروس !

وحتى خطوط الانسحاب نفسها ظلت موضع خلاف : وقد ذكر الجنرال بلومنتريت أنه « لو أن هذه الخطوط أقيمت خلف الجبهة فإنه لا وجود لمكان مناسب لها . وإذا استمر الانسحاب بضعة أيام فإن رجالنا سوف يستلقون جميعا على الأرض انتظاراً للموت ، كما حدث قبل ذلك لجيش نابليون ! »

ثم جاء أمر هتلر القاطع : « على الجيش ألا يتحرك خطوة واحدة إلى الوراء ، وعلى كل رجل أن يقاتل فى المكان الذى هو فيه ! » .

وقد أبطل هذا الأمر كل ما عداه من اعتبارات إستراتيجية أو إنسانية ، مما كان يفكر فيه الجنرالات .

* * *

وفى خضم هذا التحول الحاسم فى النزاع المسلح ، الذى اندلع فى سهول بولندا قبل عامين من الزمان ، لم يكن من المستطاع إيجاد نقطة تلاق بين هاتين النظريتين .

لقد كان فى إمكان هتلر – فى نقاط معينة من المعارك – قبول بعض (التنازلات) التى تنتزعها منه الضرورة القصوى ، غير أن القيادةالعليا حرصت هنا على التذكير بأن التفكير فى انسحاب عام لابد أن يستبعد تماماً : لأن الاعتماد على إقامة مواقع متأخرة بالغ الخطر .

وهكذا فإن هتلر هو الوحيد الذى كان بعيد النظر وواقعيا : ذلك أن الأمر الذى أصدره بالثبات فى كل مكان ضد العدو – وبأى ثمن – لم يكن صادراً عن مجرد إحساس بالزهو لدى حاكم مستبد يزعم أنه من عنصر يتسيد العناصر الأخرى ، أو عن رجل متعطش للغزو والنصر ، وإنما كان صادرا حقيقة عن قائد عسكرى جسور ثابت الجنان ، عاكف دائماً على تقارير هيئة أركان الحرب وخرائطها ، ممتلىء ثقة بصدق نظرته للأمور ، قادر على أن يسلب عدوه ستالين ذلك اللقب الذى يحسده عليه من أنه « الرجل الفولاذى ! » .

وبهذا الثبات الذى لايتزعزع ، والرأى المتعسف ، بل الشعور اللاإنسانى الذى انطوت عليه إرادة هذا الآرى – فإن هتلر نجح فى انتشال الجيش الألمانى العامل فى روسيا من الهول المروع الذى كان فى انتظاره ، وأستطاع بتضحية رمزية أن ينقذ قوات الرايخ من التفكك

الكامل والفناء التام .

وقد قال الجنرال فون تيفنسكرسن فيما بعد للمؤرخ البريطانى ليدل هارت مؤكدا فى إعجاب . « لقد كان ذلك أعظم نجاح حققه هتلر : فقد أدرك الرجال فى ذلك الوقت الحرج ، أن أمر الفوهرر لهم بالصمود كان فيه نجاة لهم من مثل المصير الذى لقيه جيش نابليون عندما انسحب من موسكو » .

* * *

أما جميع أولئك المارشالات والجنرالات الذين خالفوا أوامر القيادة العليا – أوالذين كانوا يتهيئون لمخالفتها – فقد خلعوا من قياداتهم ، وأعيدوا إلى ألمانيا يجرون ثياب الخزى والعار ، وصدرت عاصفة من قرارات الطرد من الجيش أطاحت بخمسة وثلاثين جنرالاً !

وكان أول هؤلاء هو جيرد فون رونشتت قائد مجموعة جيوش الجنوب الذى استولى على (روستوف) وعلى مواقع القوقاز . فعزل عن قيادته ، لأنه تخلى عن انتصاراته للجيش الأحمر . وتجاسر على أن يقاتل وهو ينسحب .

أما هوبنر الذى أصدر أمراً بالانسحاب للجيش الرابع المدرع بينما كان أمام موسكو فإنه جرد من رتبته العسكرية . وحرم عليه ارتداء الزى العسكرى الألمانى بقية حياته .

وأما سبونيك فقد أحيل إلى مجلس عسكرى وصدر حكم بإعدامه . على حين أن جودريان نفسه – بعد حديث عاصف مع هتلر سوف نورده فى آخر هذا الفصل بكل تفاصيله – تلقى تصريحاً بالعودة إلى ألمانيا مع إحالته إلى قوات الاحتياط . أما فون بوك الذى عجز عن الاستيلاء على موسكو وقد أنهكته آلام معدته ، فقد خُلع من منصبه ، وحل محله المارشال فون كلوجه .

وقد بلغت عملية التطهير فى القيادة العليا فى (راستنبورج) أقصى مراحلها بماترتب على ذلك من نتائج بالنسبة لمستقبل القوات العسكرية فى الرايخ وسير الحرب ، ولم يفلت من هذه العملية حتى كيتل الذى كان حتى ذلك الوقت هو المنفذ الذليل لأوامر الفوهرر .

فلقد طرده هتلر ، لأنه تجرأ وأقر أمراً عاجلاً بالانسحاب العام من أمام موسكو . وعند ذلك راح يدبج خطاب استقالته من منصب رئيس أركان الجيش الألمانى ، وقد وضع مسدسه إلى جانبه ! فلما دخل عليه الجنرال جودل ووجده على هذه الحال سارع بأخذ السلاح ، وأقنعه بأن ينسى القصة كلها . ونصحه بأن ينفذ توجيهات هتلر دون أن يناقشها . وفيما بعد عندما

سأله أحد زملائه عن طبيعة علاقته بالفوهرر أجاب الفيلد مارشال قائلا : « لست أدرى ! فهو لايوجه إلى أى حديث ، وإنما يكتفى بأن يبصق على ! » .

على أن أهم التغييرات التى حدثت فى أعقاب « أزمة موسكو » إنما جاءت على أعلى المستويات : ذلك أن حالة فون براوشيتش الصحية لم تتحسن ، فراح القائد العام يلح على هتلر لكى يصرح له بالسفر ليعالج قلبه فى بافاريا . وفى يوم ١٩ من ديسمبر أعلن الفوهرر قراره الذى أذهل الشعب الألمانى ، والطبقة العسكرية الألمانية ، والعالم أجمع !

إن ماكان يعتقده هتلر فى براوشيتش الذى تربع منذ عام ١٩٣٨ على رأس القوات البرية للرايخ ، يظهر بوضوح فى (يوميات) جوبلز الخاصة ، إذ يقول عن ذلك : « إنه رجل بائس كسول ومغرور يعجز عن السيطرة على أى موقف ، وقد أفسد تماماً خطة معركة الشرق ، ولو أنه نفذ ماكان يتعين عليه تنفيذه فعلاً ، لكان موقفنا اليوم مختلفاً . . »

من هنا فإن هتلر لم يشعر بأى أسف وهو يبعد قائد الجيش ، وقد جاء هذا الإجراء بارعاً ، فإن الفوهرر قدمه للرأى العام وهو يبعده فى صورة المسئول عن الفشل أمام موسكو .

* * *

ولقد كانت مسألة خلافة قائد عام الجيش الألمانى من الأمور ذات الخطورة البالغة التى لم يسبق أن أثيرت منذ ثلاثة سنوات ، عندما أبعد عنها كل من الجنرالين فون بلومبرج وفون فريتش . وهاهى ذى تطرح الآن ، على حين أن الحرب دائرة على أشد ماتكون ، وفى وقت يتعرض فيه الجيش الألمانى لأعنف أزمة فى تاريخه .

فمن الذى يحل محل براوشيتش ؟

لقد انتظر هتلر اثنى عشر يوما قبل أن يعلن رده على هذا السؤال ، فلما أعلنه تفجر كالرعد ، وكان الجنرال فرانس هالدر رئيس أركان الحرب الجديد هو أول من اطلع عليه فى مطلع النصف الأخير من ديسمبر ١٩٤١ .

لقد كان أدولف هتلر منذ سبع سنوات مضت ، يجمع بين يديه منصب رئيس الدولة ، ومعه صلاحيات القائد الأعلى للجيش الألمانى والقوات الألمانية المسلحة ، فلما ألغيت وزارة الحرب فى عام ١٩٣٨ تولت اختصاصاتها هيئة أركان الحرب الشخصية لهتلر ، والشىء الوحيد الذى امتنع شكلياً على سيطرة الفوهرر المباشرة ، هى تخصصات القيادة العليا للقوات البرية التى تولاها فون براوشيتش .

ولكى يصبح هتلر القائد العام لجميع القوات المحاربة فى الرايخ ، لم يكن باقياً إلاأن يضم هذه التخصصات ، وكان هذا ماتم يوم الجمعة ١٩ من أكتوبر . وقد تلقى الجنرال هالدر هذا النبأ دون أن ينطق بكلمة واحدة ؛ فإن هتلر كان بذلك قد بسط سلطته رسمياً على السلوك المباشر لجميع العاملين فى السلك العسكرى .

وقال هتلر لهالدر : « إن أى إنسان يستطيع القيام بهذا العمل البسيط فى قيادة العمليات . إن عمل القائد العام هو تثقيف الجيش فى الفكر الوطنى الاشتراكى ، ولست أعرف أى جنرال يستطيع أن يقوم بذلك كما أريد . ومن أجل ذلك فقد قررت أن أتولى بنفسى قيادة الجيش » .

وقد كتب (وليام شيرر) فى كتاب له بعنوان (الرايخ الثالث) فى هذه النقطة فقال : « لقد أبلغ هتلر رئيس أركان حربه الجديد فى احتقار ، أنه يستطيع الاحتفاظ بصلاحياته فى القيادة ، ولكن بريقاً من الاعتراف بالجميل ومن الشعور بالخوف معاً استقر ساعتها فى كيان الجنرال ؛ إذ إنه لم يكن يطلب سوى ذلك بكل تأكيد » .

وابتداء من تلك اللحظة أصبح أدولف هتلر هو الذى يدير الحرب ويوجهها بمفرده ، وصارت لرغباته قوة القانون على كل شىء فى ألمانيا ، وبات يسيطر شخصيا على كل مقدرات الجيش الألمانى .

وهكذا أصبح جيش الرايخ لايستطيع أن يحرك أقل وحدة من وحدات الاحتياط فيه – وخاصة الوحدات المدرعة – إلا إذا وافق هتلر رسمياً على ذلك . ولسوف يسفر هذا القرار بصفة خاصة عن الكارثة التى حاقت بألمانيا يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ على شواطئ نورماندى .

وبذلك سجل فشل القوات الألمانية أمام موسكو مرحلة حاسمة فى تطور العلاقات بين هتلر وجنرالاته منذ عام ١٩٣٤ غداة ليلة « السكاكين الطويلة » ، وإلغاء فرق الهجوم التابعة لروهم ، ثم الأزمة الكبرى التى وقعت عام ١٩٣٨ .

° ° °

لقد كان من شأن أول معركة كبرى يخسرها الجيش الألمانى – وينسب هتلر مسئوليتها إلى الذين أشرفوا على تنفيذها فى الجبهة – أن أتاحت له تحقيق ماكان يفكر فيه منذ عامى ١٩٣٨ – ١٩٣٩ وفترة الإعداد للنزاع المسلح ، ألاوهو القضاء على الطبقة العسكرية الأرستقراطية .

وفى أواخر عام ١٩٤١ بينما كان الجيش الأحمر مستمرا فى إحداث الثغرات التى كان يقوم

بها ، وإنهاكه للقوات الألمانية حول العاصمة السوفيتية ، كان أدولف هتلر يتذوق طعم انتصاره الفردى الذى لم يكن فى الحقيقة إلا نصراً مريراً سوف يدفع ثمنه عشرات الألوف من الجنود الألمان على الجبهة الروسية !

وفى ذلك الشتاء القارص فى الشرق ، ظل هتلرا واثقاً من مصيره بوصفه رجل العناية الإلهية الذى وضع على رأس الأمة الجرمانية ؛ لكى يقضى على البلشفية ، ويحقق نصر ألمانيا الكبرى ، وينشر فتوحها ، ويرفعها فوق دول العالم أجمع !

إن هذا الاعتقاد الراسخ قد اتضح بما لايدع مجالاً للشك عقب أحداث ذلك الشتاء : ففى الخطاب الذى ألقاه هتلر يوم ٣٠ من يناير ١٩٤٢ ، بينما كانت محنة الشرق فى عنفوانها – تحدث بما لايحتمل أى لبس عن ثقته غير المحدودة فى ذاته التى وصفها بأن لاشىء يزعزعها قط !

غير أن الفوهرر الذى كان من قبل رجلاً كله حيوية وحرارة ، وتتدلى فوق جبينه خصلة من الشعر الكستنائى ، وقد انتصب جسده المعتدل كأنه شجرة الصنوبر الجبلية الفارهة ، إذا به يصبح فى شهر مارس ١٩٤٢ دكتاتوراً ، ذا شعر مشى فيه الشيب دائم الشكوى من الدوار الذى لايفارقه ، ولم يعد يطيق رؤية الثلوج التى تذكره بأمور تبعث فى جسده قشعريرة مؤلمة

ومع ذلك فإن هتلر كان مقتنعاً أكثر من أى وقت مضى بعبقريته العسكرية ؛ إذ إن ذلك الأمر الذى أصدره بعدم الانسحاب ، فأعطى نتائج باهرة أمام موسكو ، جعل تلك العقيدة تترسب فى كيانه ، وأوحت إليه أنه لايخطئ أبداً ، ومن هنا فإنه راح يكرر إصدار الأمر بالصمود وعدم التراجع فى جميع الأحوال ، سواء كان خطأ أوصواباً كأنه الدواء لكل داء

لكن ذلك أسفر فى نهاية الأمر عن خسائر فى قواته لاحدود لها ، ومن هذا فناء الجيش الكامل الذى كان يقوده فون باولوس فى ستالنجراد ، والتراجعات المدمرة التى كان يمكن تجنبها بنوع من الدفاع المرن ، أوبتقصير الجبهات بحيث تتيح مقاومة لايمكن أن توفرها قوات تقل بكثير عن الحشود السوفيتية التى لاعدد لها من أجل الحفاظ على تلك الأراضى الفضاء الواسعة التى احتلت عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ .

وهكذا حاقت بألمانيا كوارث رهيبة فى الأيام التالية ، استمدت جذورها من النصر الذى حققه هتلر فى شهر ديسمبر ١٩٤١ على جنرالاته ، بذلك الإصرار الذى كان له يومها ما يبرره ، والذى جعله يصدر أمره بعدم التراجع على الإطلاق .

وكما سبق أن أشرنا ، فإن الحوار الذى جرى بين هتلر وجودريان قبل أن يبعده عن القوات المسلحة للمرة الأولى ، يبين سلوك الفوهرر فى أواخر عام ١٩٤١ إزاء محاولة قواته التجوء إلى تكتيك القتال وهى تنسحب . ونورد فيما يلى ماورواه جودريان بنفسه فى « مذكرات جندى » التى سجنها وتركها وراءه .

يقول جودريان :

« هبطت بى الطائرة يوم ٢٠ من ديسمبر ١٩٤٢ حوالى الساعة ١٥,٣٠ ، فى مطار راستنبورج . وقد استغرقت مقابلتى لهتلر خمس ساعات تخللتها فترتان للاستراحة كل منهما نصف ساعة : الأولى لتناول الغذاء ، والأخرى لعرض أحداث عن سير الحرب صورت فى بعض الأفلام حرص هتلر على أن يشاهدها بنفسه .

« وقد استقبلنى فى الساعة ١٨,٠٠ فى حضور كل من كيتل وشمونت ، وعدد آخر من الضباط . ولم يشترك رئيس هيئة أركان الجيش ولاأحد يمثل القيادة العامة فى هذا المؤتمر الذى عقد فى القيادة الجديدة للقوات البرية ، وهو المنصب الذى أسنده هتلر لنفسه بعد أن سرح المارشال فون براوشيتش . وكما حدث لى يوم ٢٣ من أغسطس ١٩٤١ فقد وجدت نفسى بمفردى إزاء عصابة قيادة هتلر العليا .

« وبينما أخذ هتلر يتقدم لتحيتى دهشت إذ أحسست للمرة الأولى بنظرة حادة كلها عداء . وأن أقرأ فى عينيه لمحة أيقظت فىّ الاقتناع بأن جانباً آخر قد شحنه ضدى . وقد ضاعف ضوء الغرفة الصغيرة التى استقبلنى فيها من شعورى بعدم الارتياح !

« وبدأ المؤتمر بوصف قدمته عن حالة العمليات فى الجيش المدرع الثانى وفى الجيش الثانى . ثم عرجت على نيتى فى التراجع على مراحل بالجيشين إلى موقع (زوسا – أولا) . وكنت قد شرحت هذه الفكرة للمارشال فون براوشيتش ، وحصلت على تفويض منه بتنفيذها ، وكنت أعتقد أن هتلر على علم بذلك .

وقد كانت دهشتى كبيرة ، وأنا أسمعه يرد على فى عنف قائلاً : « لقد حظرت ذلك ! »

« وعند ذلك قلت : إن حركة التراجع جارية حالياً ، وليس هناك أى موقع ملائم أمام خط النهر ، وإنه لاسبيل إلى خيار آخر ، إذا هو وافق على المحافظة على قواته ، والوقوف خلال الشتاء فى مواقع مستقرة .

فقال : « يتعين عليك أن تلتحم بالأرض ، وتدافع عن كل متر مربع منها !

فأجبت : « ليس فى الإمكان الالتحام فى كل مكان بالأرض ؛ فهى متجمدة بعمق متر أومتر ونصف المتر . والمعدات البسيطة التى لدينا لاتتيح لنا الحفر حتى نصل إلى الأرض المتربة » .

قال : « احفروا مخابئ بالألغام الثقيلة ، إن ذلك مافعلناه فى الفلاندر فى الحرب العالمية الأولى » .

قلت : «إن قواتى عليها أن تداف عن جبهات تتراوح بين ٢٠ ، ٤٠ كيلومتر ، ولدى بالنسبة لكل فرقة من هذه القوات أربع حفارات . فلو أنى استخدمتها لما أمكن أبدا أن تنجز مايكفى الرجال إلا بعد سنوات ! إن الجو فى الفلاندر لم يكن يمثل هذه الدرجة المنخفضة من الحرارة التى نتحملها اليوم ، ثم إنى أحتاج إلى ذخائر لدفع الروس إلى الوراء ، بل إننا لانستطيع أن ندق الخوابير فى الأرض لمد خطوطنا التليفونية إلا إذا حفرناها بالمتفجرات ، فأين يمكن أن نحصل على متفجرات تكفى حفر مواقع بمثل هذا الاتساع ؟ »

« غير أن هتلر أصر على أمره الذى يقضى بأن نثبت فى المكان الذى نحن فيه ، فقلت له : « إن ذلك معناه العودة إلى حرب المواقع فى أرض غير ملائمة . كما كانت فى الغرب خلال الحرب العالمية الأولى . إننا إذا فعلنا ذلك فسوف نتعرض لنفس معارك العتاد وللخسائر الكبيرة التى حدثت فى ذلك الوقت بغير أن نتمكن من اتخاذ القرار . ولسوف نفقد منذ حلول الشتاء بهذا التكتيك خيرة ضباطنا وصف ضباطنا والاحتياطى المخصص لهم ، وهذه التضحية لن تكون لها أى فائدة ، كما أننا لن نستطيع تعويضها »

فسألنى هتلر : « هل تعتقد أن حملة البنادق فى قوات فردريك الأكبر قد ماتوا بمحض اختيارهم ؟ لقد كانوا بدورهم يريدون الحياة ، ومع ذلك فإن الملك طالبهم بالتضحية بحياتهم . وأعتقد أن لى كذلك حق مطالبة كل جندى ألمانى بأن يضحى بحياته ! »

– إن كل جندى ألمانى يعرف أنه فى زمن الحرب عليه أن يضع حياته تحت تصرف وطنه ، وقد أثبت جنودنا حقاً حتى الآن أنهم على استعداد لتقديم هذه التضحية إلا أنه يتعين ألانطالبهم بها إلا إذا كان المقابل يستحق ذلك . إن التعليمات التى تلقيتها سوف تؤدى إلى وقوع خسائر لاعلاقة لها بالنتائج الملموسة . والأمر ليس كما اقترحته من أن قواتنا سوف تلقى عند خط (زوسا – أولا) مواقع محصنة ترجع إلى معارك الخريف ، فيها وقاية من الصقيع . إننى أطلب منك أن تفكر فى أن العدو ليس هو الذى أوقع بنا خسائرنا الفادحة ، وإنما البرد القارص هو

الجنرال مودل يتحدث إلى بعض الشباب الفارى فى مارس ١٩٤٥ . وقد انتحر بعد ذلك بشهر ، وكان الروس يطالبون به لإعدامه

الجنرالات فون كلبست قائد المجموعة الأولى للمدرعات الألمانية التى تتكون من خمس فرق دبابات ، والتى كانت رأس حربة لجيوش الجنوب بقيادة فون روندشتت

عندما بدأ الهجوم السوفيتي على الأراضي الألمانية ، راح سكان المناطق المعرضة للهجوم يهجرونها بالآلاف .

الجنرال مودل خلال الهجوم على (كورسك) وقد أخر الهجوم ، رغم رأى فون كلوجه وفون مانشتاين ، انتظار للتعزيزات .
وقد اصطدم هذا الهجوم بمقاومة عنيفة من جانب الروس .

الذى كبدنا ضعفى ماكابدناه من نيران الأعداء . إن مَنْ رأى المستشفيات المملوءة بالرجال الذين تجمدوا من البرد يعرف ماالذى يعنيه ذلك .

فقال هتلر : « إننى أعرف أنكم كابدتم الكثير ، وأنك كنت تلازم قواتك باستمرار ، وأعترف بذلك . غير أنك قريب جدا من الأحداث ، وتترك نفسك تتأثر بما يعانيه الجنود ، فأنت لذلك تشفق عليهم أكثر مما يجب ، فيلزمك إذن أن تتراجع قليلاً لترى المشهد بصورة أكمل ؛ فالمرء يرى الأشياء عن بعد أفضل مما يراها عن قرب »

– إن واجبى أن أنفعل بقدر آلام جنودى ، وذلك أمر بديهى ، وعلىّ أن أخفف منه بقدر ماأستطيع ، لكن ذلك يكون من أصعب الأمور عندما لايكون لدى هؤلاء الجنود ثياب للشتاء ، وعندما يضطر المشاة للقتال وهم يرتدون ثياباً مصنوعة من التيل ! إن هذه القوات تنقصها الأحذية الطويلة ، والملابس الداخلية ، والقفازات ، والمعاطف الثقيلة ؛ وذلك هو مايجعلنى أشفق عليهم .

فقال هتلر فى غضب : « ليس ذلك صحيحاً ؛ لقد أخبرنى مدير المهمات أن مستلزمات الشتاء قد أرسلت إليكم » .

– لقد أرسلت ولاشك ، ولكنها لم تصل بعد ؛ فإننى أتابعها على الطريق ؛ وهى الآن فى محطة (وارسو) منذ أسابيع ، وستبقى فيها حتى تبلى نتيجة لنقص القطارات وازدحام الطرق !

وهنا استدعى هتلر مدير المهمات ، فأكد ماقلت ، وكانت « حملة الثياب » التى قام بها جوبلز فى عيد الميلاد فى عام ١٩٤١ ، هى نتيجة هذه الواقعة . إلا أن الجنود لم يحصلوا على ثياب شتوية خلال ذلك العام .

وخلال العشاء جلست إلى جوار هتلر ، وانتهزت الفرصة لأقول له تفاصيل حياتنا فى الجبهة ، ولكن ماقلته لم يحدث الأثر الذى أنشده ، وقد اعتبره هو ومن حوله مبالغاً فيه .

ولذلك فإننى اقترحت عندما استؤنف المؤتمر بعد تناول العشاء ، إحداث حركة تنقلات للضباط الذين يعملون فى القيادة العليا وفى هيئة أركان الحرب ، لكى يذهبوا إلى الجبهة ويعرفوا مايدور فيها على الطبيعة ، ثم قلت : « إن موقف هؤلاء السادة جعلنى أوقن أن التقارير التى نبعث بها إليهم لاتجد لديهم الفهم الصحيح ، ومن ثم فهى لاتصل إليكم أولاتعرض عليكم بصورة سليمة . ويبدو لى أنه يتعين أن ينقل إلى القيادة وهيئة الأركان ضباط خاضوا التجربة على الجبهة ، فأحزم أمرك على تغيير هذا الحرس ؛ فإن هذه الحرب تختلف تماما

عن الحربُ السابقة ، ولا يمكن الإحاطة بها لمجرد الاشتراك فى الحرب العالمية الأولى» .

غير أننى كنت كمن يحرث فى البحر . إذ أجاب هتلر بامتعاض : « لن أغير من حولى فى الوقت الراهن» .

ولقد ذهب كل ماقلته أدراج الرياح ؛ فبينما كنت أغادر قاعة المؤتمر قال هتلر لفون كيتل : « إننى لم أستطع إقناع هذا الرجل »

وهكذا انفتحت ثغرة كان من غير المستطاع سدها !

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الحادى والثلاثون

الجو الخانق . . داخل القيادة العامة

لقد نشر (البرت سبير) الذى كان يشغل منصب وزير الإنتاج والتسليح فى الرايخ مذكراته التى جمعها فى كتاب بعنوان : « فى قلب الرايخ الثالث » .

والواقع أن هذا الكتاب يعتبر مرجعاً خصباً للكثير من الأحداث المثيرة التى وقعت فى ألمانيا خلال ذلك العهد ، كما أنه فى رأينا خير مايتيح التعرف عن قرب على شخصية هتلر ، والوقوف على التطور الذى طرأ عليه فيما بين صعوده إلى السلطة ، واليوم الذى انتحر فيه ، فضلاً عن الإحاطة بالجو الذى كان يخيم فى عام ١٩٤٣ على القيادة العامة ، وسلوكه إزاء الجنرالات والمؤامرة التى تعرض لها :

* * *

فى عام ١٩٤٣ ، فكر كل من سبير وشمونت ، فى أن يجلبا إلى مقر قيادة هتلر عدداً من ضباط الجبهة الشبان لإدخال شىء من الروح السائدة فى الخارج إلى القيادة العليا ، مما يتيح تجديد الجو الخانق الذى كانت غارقة فيه .

وذات يوم جاء إلى القيادة ضابط مدرعات ، وراح يروى للفوهرر قصة ثغرة وقعت فى صفوف الجيش السوفيتى على نهر (تيريك) ، فقال : إن وحدته لم تلق هناك أى مقاومة ، ولكن نقص الذخيرة اضطرها الى وقف تقدمها . وقد غضب هتلر لذلك غضباً شديداً لدرجة أنه ظل عدة أيام بعد هذه الرواية وهو لايكف عن العودة الى الموضوع ، ثم يقول : « هذا هو ماكان إذن : نقص فى ذخيرة عيار ٧٥ ، فأين الإنتاج إذن ؟ لابد من عمل كل شىء فى سبيل زيادته » .

والواقع أنه كان لدينا فى نطاق وسائلنا المحدودة ، مايكفى من قذائف هذا العيار ، غير أن تقدم القوات الألمانية كان من السرعة ، مما جعل عملية تزويدها بالذخائر لاتستطيع متابعتها

نتيجة لنقص فى وسائل المواصلات ، لكن هتلر رفض أن يأخذ هذه الحجة فى الاعتبار .

وهناك أحداث أخرى مزعجة حدثه عنها أولئك الضباط الشبان ، ومنهم من كان يجىء من الجبهة مباشرة . واستنتج من هذه الأقوال أن هيئة الأركان ترتكب أخطاء خطيرة . ولكن أكثرها كان يرجع إلى الصعاب التى تنشأ عن أوامر هتلر بالإسراع فى تقدم القوات ، إلا أنه كان من المستحيل على الخبراء أن يناقشوا الأمر معه ؛ لأنه كان لايعرف مايكفى عن التعقيدات التى تترتب على فتح ثغرة فى صفوف الأعداء .

* * *

وكان هتلر يستقبل بين الحين والآخر الضباط والجنود الذين كان يمنحهم أوسمة عسكرية نتيجة لأعمال بطولية . وماكان لايثق فى كفاية أركان حربه فكثيراً ماكان يحدث بعد هذه الزيارات نشاط كبير نتيجة للأوامر ذات الاتجاه العام التى يصدر بها هذه الهيئة . ولكى يتقى كيتل وشمونت كل ذلك كانا يعمدان إلى الالتقاء بالزائرين قبل أن يستقبلهم هتلر لتغيير ماتنطوى عليه أقوالهم معه من خطورة .

وكان تناول شاى العصر الذى يدعو هتلر إليه أركان الحرب والمقربين إليه قد أخذ يتأخر مع مرور الأيام ، إلى أن أصبح يبدأ حوالى الساعة الثانية من بعد منتصف الليل ، وينتهى فى الثالثة أو الرابعة صباحاً .

وكان واضحاً أن هتلر يعانى من الأرق . إذ كان طول تفكيره فى الحرب لايجعله قادراً على أن يغمض عينيه . وكان هؤلاء المقربون هم عادة من الأطباء الذين يشرفون على حالته الصحية ، ومن سكرتيريه العسكريين أوالمدنيين ، والسفير الألمانى (هيويل) ، ومندوب عن إدارة الصحافة ، وفى بعض الأحيان طاهيته العجوز التى جاء بها من فيينا ، ثم بورمان وألبرت سبير .

وكلما مرت الأيام ازداد ميل هتلر إلى التزام الصمت ، وابتداء من خريف ١٩٤٣ أصبح الجلوس معه عذاباً لايطاق . فقد كان مدعووه يزدردون الطعام فى صمت ، فإذا تحدث أحدهم عن الجو تبديداً لهذا الصمت انبرى هتلر ، ووجه اللوم إلى رجال الأرصاد الجوية الذين لايحسنون التنبؤ عن التغيرات فى الطقس بالدقة التى يطلبها .

وبالتدريج أصبح هتلر يعيش فى عزلة عمن حوله حتى وهم معه ، وأخذ شعوره بالوحدة يعذبه ، حتى إذا كان ذلك الخريف ، بدأ يردد عبارة يسرها إلى ألبرت سبير ، يقول فيها : إنه

سيأتى قريباً اليوم الذى لن يبقى له فيه سوى صديقين : كلبه وصديقته إيفا براون .

وكان يقول ذلك بلهجة يشيع فيها الاشمئزاز . دون أن يعبأ باعتراض من يزعم من الحاضرين أنه يخلص له كل الإخلاص .

أما الفترة الوحيدة من يومه التى كان يشعر فيها بالارتياح . فكانت خلال ذلك المؤتمر الذى يعقده كل يوم مع أركان الحرب ، ويبدأ بعد الغذاء مباشرة حوالى الساعة الثانية .

ولم تكن مائدة العمليات قد تغيرت منذ ربيع ١٩٤٢ ، وكان الذين يقفون معه حولها هم نفس الجنرالات ونفس مساعديه العسكريين . فيروح هو يفحص جميع الخرائط على حين يتابعونه فى صمت ، وقد بَدَوْا جميعاً كأنهم قد شاخوا خلال الشهور الثمانية عشرة الماضية . أما هتلر فقد أصبح يصغى إلى الآراء التى يدلى بها بعضهم فى غير مبالاة .

* * *

وتجرى بعد ذلك مناقشات تتناول كل مامن شأنه أن يبعث على الأمل ، وكانت عمليات استجواب الأسرى والتقارير القادمة من الجبهة تحمل على التفكير فى قرب حدوث خوار فى قوى العدو . وكانت الخسائر التى تنزل بالروس خلال الهجمات الألمانية عليهم . تبدو أكثر فداحة مما يصيب القوات المهاجمة حتى برغم الفارق الكبير بين عدد سكان كل من الجانبين .

وكانت الانتصارات الألمانية البسيطة تتخذ خلال هذه المناقشات أبعاداً مبالغاً فيها ، فلاينبث هتلر أن يصدق ذلك ، ويرى فى هذه الانتصارات الدليل على أن القوات الألمانية يمكنها أن تقاوم الهجوم الروسى ، حتى تستنفزهم تماماً . أما أغلب ضباط القيادة العليا فكانوا على ثقة من أن الفوهرر سوف يضع نهاية للحرب عندما يحين الوقت الملائم لذلك .

والواقع أن هتلر كان يأمل تحليل الموقف ، ولم يكن يفكر فى تقويم وسائل الإمدادات الضرورية لتنفيذ مخططاته ؛ ولم تكن هناك مجموعات للبحث والدراسة ، لكى تقيس جميع فرص نجاح الهجمات التى يخطط لها ، أوتقدير مدى الهجمات المضادة التى يمكن أن يقوم بها العدو . وكان أعضاء القيادة العامة مؤهلين للقيام بكل هذه المهام التى تتفرع عن الحرب الحديثة . ولم يكن ينقصهم إلا أن يُكلفوا بالقيام بها .

ومن المقطوع به أن هتلر كان يستعلم عن بعض المجالات الخاصة . غير أنه هو بمفرده الذى كان يقوم بتحليل التفاصيل كافة ، وكذلك فإن جنرالاته ومعاونيه المباشرين لم يكن لهم فى الحقيقة إلا دورٌ استشارى ؛ لأن الذى كان يحدث فى أغلب الأحوال أنه يتخذ قراره قبل أن

يطلب مشورتهم ، فلم يكن فى الإمكان تغيير ما استقر عليه إلا فى النادر القليل .

وفضلاً عن ذلك فإنه كان يتحدى جميع المعلومات التى كان يمكن أن يستخلصها من سير المعارك فى روسيا عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ، أما ضباط القيادة العامة الذين كانت تؤرقهم المسئولية الضخمة الملقاة على عاتقهم ، فلم يكن يصنهم فى هذا الصدد سوى أوامر تجيئهم من أعلى ، لكى تملى عليهم السلوك الذى يجب أن يتبعوه ، إلا أن القلة من هؤلاء الضباط هم الذين طلبوا أن يذهبوا إلى الجبهة هروباً من تبكيت الضمير الذى كانوا يعانون منه فى القيادة العامة .

إن هذه الظاهرة مازالت غير مفهومة حتى اليوم ، إذ إنه قد ثبت تاريخياً أنه مامن ضابط فى تلك القيادة قد أبدى فى ذلك الوقت أى تحفظ على ذلك الوضع ، حتى لو كان تحفظاً أدبيا . والتفسير الوحيد لذلك هو أن عالم القيادة العليا الذى كانوا يعيشون فيه بما كان يسوده من جو وماستقر فيه من خوف ، جعلهم قليلى الإحساس بما يجرى من حولهم .

ومع ذلك فإن القرارات التى كان يتخذها هتلر ، كانت لها عواقب ثقيلة فادحة : فقد كان يحدث أن تقع قوات ألمانية فى حصار لامخرج منه ، لاشىء إلا لخطأ وقع فيه هتلر ، نتيجة لمناطلة منه فى إصدار أمر بالتراجع أوالانسحاب وفقا لما تقترحه هيئة أركان الحرب . وكان المعنى الذى تنطوى عليه هذه القرارات ، والمعارك التى تدور ترتيباً عليها ، والقتلى الذين يسقطون خلالها ، لايعنى هؤلاء الضباط فى شىء .

* * *

ولو أن هتلر أوهيئة أركان حربه قد قاموا بجولة ما على الجبهة ، لتكشفت لهم بغير عناء الأخطاء الجوهرية التى كان من شأنها أن سالت الدماء أنهاراً ! غير أنه هو ومساعديه العسكريين كانوا يعتقدون أن فى استطاعتهم إدارة العمليات فوق خرائط هيئة الأركان ، دون أن يعرفوا شيئا عن قسوة المناخ ، أوعن حالة الطرق خلال الشتاء الروسى ، ولم يدر فى أذهانهم أن الجنود الألمان متعبون منهوكو القوى ، استُنفذت كل طاقاتهم ، وقد زودوا بأسوأ عتاد ، وقد أصبحوا لايجدون أى مكان يأوون إليه ، فيضطروا إلى دفن أنفسهم فى الأرض شبه المتجمدة ، فيحفر كل منهم لنفسه فيها حفرة يرقد فيها ، إذ كانت مقاومتهم قد انتهت منذ أمد بعيد !

وفى المؤتمرات التى كانت تعقد فى هيئة الأركان ، كان هتلر يُدخل فى اعتباره أن هؤلاء

الجنود المتعبين المرهقين قوات فى عنفوان نشاطها وكامل عدتها ، فيأمر بأن يساقوا إلى معارك طاحنة ، ثم يصدر بعد ذلك أحكامه على سلوكهم فيها . وفوق الخرائط كان يعمد إلى نقل الفرق فى كل اتجاه ، على حين كانت أنفاسها قد تبددت ، ولم يعد معها لاسلاح ولاذخيرة . وكثيراً ماكانت الفترات التى يحددها لتحركاتها ، لاعلاقة لها على الإطلاق بإمكاناتها الحقيقية !

ولقد كان مركز الاتصال بالقيادة العامة نموذجاً متقدماً فى ذلك الوقت ، إذ يتيح الاتصال الفورى المباشر مع جميع مسارح العمليات الكبرى ، لكن هتلر كان يضفى أهمية أكبر على هذه الإمكانات ، فيستخدم التليفون واللاسلكى والتليكس ، وكان من شأن هذا الاستخدام حرمان الجنرالات المسئولين من كل إمكان للتصرف وفقاً لمبادراتهم الخاصة ، كما كان يحدث فى الحروب السابقة ، لأن هتلر كان يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى أى قطاع من الجبهة يعملون هم فيه .

وبفضل هذا المركز كان هتلر يجرى اتصالات وهو جالس فى مكتبه ، أو وهو يحضر أى مؤتمر ، فيتولى قيادة جميع القوات العاملة فى جميع الجبهات ، والمشتركة فى جميع المعارك . وكلما تدهور الموقف أسهم هذا الجهاز الفنى الحديث فى زيادة الفجوة بين الواقع والخيال الذى يسيطر على سير العمليات من هذا المركز .

° ° °

ولقد كان الذكاء والصلابة والأعصاب الفولاذية ،هى التى يقول هتلر إنها الصفات الأساسية المطلوبة لقيادة العمليات الحربية ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن جميع هذه الصفات كامنة فيه ، بدرجة تفوق بكثير مافى الجنرالات من صفات .

وكان يصرح علناً بذلك ، دون أن يعبأ بمدى المهانة التى ينطوى عليها بالنسبة للضباط الذين يسمعونه ، ولم يكن هتلر يخشى فى أغلب الأحوال أن يوجه إلى أكبر رأس فى هيئة الأركان أقذع الشتائم والإهانات ، فكان يتهمهم بفقدان العزيمة ، وبأنهم يفضلون أن يحاربوا وهم ينسحبون ، وبأنهم يتخلون بدون داع عن الأرض التى احتلوها . وبأنهم من الكسالى الذين ليست لديهم الشجاعة لخوض أى حرب !

وكان يقول إنهم كانوا يحاولون دائماً ثنيه عن أى عمل مجيد ، بادعائهم أن القوات الألمانية ضعيفة . فإلى من تنسب الانتصارات إذن إن لم تنسب إليه وحده ؟ والواقع أنه كان يعدد دائماً

جميع الانتصارات العسكرية التى أنجزها برغم الرأى المعارض الذى كان يأتى من أركان الحرب العامة .

وكان يحدث أن يفقد الفوهرر السيطرة على نفسه . فيستولى عليه الغضب فجأة ، ويصبح وجهه قرمزيًّا ، وتروح الكلمات تتزاحم خارجة من فمه وهو ينعت هيئة الأركان بأقسى الصفات كأن يقول : « إنكم لستم فقط كسالى مقعدين . ولكنكم فوق ذلك كذابون ! إن كلية أركان الحرب تعلم الكذب والخداع ! والمعلومات التى حشت بها رءوسكم زائفة ! أنتم تزعمون أن الموقف متدهور ، لالشىء إلالكى تحملونى على الحرب وأنا أنسحب ! »

إن الأوامر التى كان يصدرها لم تكن تعنى إلا أن يظل خط الجبهة سليماً مستقيماً . مهما كلف ذلك . وكثيراً ماترتب على ذلك أن اقتحمت الخطوط الألمانية بعد أيام أوأسابيع . وقضى السوفيت بذلك على قوات كان يمكن إنقاذها . أما هتلر فكان يجد فى ذلك سبباً جديداً لانفجارات جديدة من غضبه . فيصدر أحكاماً قاسية سواء على الضباط أوعلى الجنود ، كأن يقول : « إن جنود الحرب العالمية الأولى كانوا أكثر شجاعة منكم ! فعليكم أن تعودوا إلى الأعمال البطولية التى قاموا بها فى مواقع مثل (فردان) أو (السوم) ، حتى تتعلموا منهم ! » .

ولابد أن الكثيرين من الضباط الذين أهانهم بهذه الطريقة قد شاركوا فى مؤامرة يوم ٢٠ من يوليو . وبينما كان هتلر فيما مضى مهذباً رقيقاً ، يختار أفضل الكلمات يخاطب بها من حوله ، إذا به يتحول ، فلا يراعى أى تحفظ ، ولا يستطيع أن يسيطر على مشاعره ، أو أن يمسك لسانه عن الانطلاق بأقسى الألفاظ !

* * *

ولكى يترك هتلر وراءه للأجيال القادمة الدليل على أنه كان دائماً يتخذ من القرارات أفضلها ، فإنه أمر بأن يجىء عدد من المحترفين الذين يعملون فى الراديستاج لكى يجلسوا على مائدة المؤتمرات التى تعقدها هيئة أركان الحرب ، ويسجلوا كل مايدور فيها .

وفى بعض الأحيان – عندما كان يخيل إليه أنه قد عثر على حل لإحدى المعضلات – فإنه كان يسأل : « هل سجلتم هذا ؟ إنهم سوف يقولون يوماً : إننى كنت على حق ، لكن هؤلاء الحمقى من أركان الحرب لايريدون أن يصدقونى ! »

وعندما كانت القوات تندفق بغزارة على المؤخرة ، فإنه كان يصيح قائلاً : « هاهم مرة أخرى لاينفذون أوامرى . ثم ينسحبون بدعوى كاذبة من أن الروس أجبروهم على ذلك ! » .

إن هتلر لم يكن يريد أن يعترف بأن خسائره إنما ترجع إلى موقف الضعف الذى أصبحت عليه القوات الألمانية ، عندما اضطرت إلى أن تحارب فى عدة جبهات .

ولقد انتهى الأمر بأولئك المحتزلين الذين كانت لديهم قبل عدة أشهر صورة مثالية عن هتلر وعبقريته - كما أدخل جوبلز فى روعهم - أن أصيبوا بخيبة أمل أكبر ، وبدءوا يتصورون أنهم يحضرون اجتماعات تعقد فى مستشفى للمجانين ! لقد أصبحوا الآن يواجهون الواقع وهم يسجلون مايدور ، فتبدو على وجوههم علامات الهلع والاستغراب ! وكان يخيل لمن يراهم على هذه الحال أنهم مندوبون عن الشعب ، قدر لهم أن يكونوا شهوداً مباشرين على الفاجعة التى تجرى فصولها .

وكان هتلر الذى بات أسيراً لنظرية ابتدعها تقول إن السلاف ، ماهم إلا أناس متخلفون ، قد ادعى أن الحرب معهم لن تكون سوى لعب أطفال . ولكن كلما استطالت الحرب فإن الروس بدءوا ينتزعون احترامه لهم .

فلقد بلغ التأثر مبلغه منه نتيجة للصلابة التى تحملوا بها خسائرهم وهزائمهم ، وكان يتحدث عن ستالين بالكثير من الإكبار ، وهو يبرز وجوه الشبه بينهما ، وكان يرى أن الخطر الذى كان يخيم فوق موسكو فى شتاء عام ١٩٤١ ، يشبه تماماً الوضع الذى أصبحت عليه ألمانيا .

وفى الأوقات التى كان يشعر فيها بالتفاؤل ، كان يعاوده الاعتقاد بأنه سينتصر ، فيقول على سبيل المزاح إنه سوف يعهد - عندما يهزم الروس - بإدارة الاتحاد السوفيتى إلى ستالين تحت وصاية ألمانيا ، لأنه أفضل من يخضع الشعب الروسى ، ولأنه كان يرى فى ستالين نداً له ، فإنه أمر عندما وقع ابن ستالين فى أسر القوات الألمانية ، بأن يعامل أفضل معاملة .

ولقد تغيرت الأمور كثيراً منذ ذلك اليوم الذى تنبأ فيه هتلر بعد أن وقع اتفاقية الهدنة مع فرنسا ، بأن محاربة الاتحاد السوفيتى ستكون نزهة عسكرية . . فقد وصلت به الحال إلى أن اقتنع بأن مشكلته فى الشرق تجرى مع خصم عنيد ، وذلك على عكس الفكرة التى لازمته حتى نهاية الحرب ، من أن جنود الغرب كانوا أحجاراً محاربة ! وحتى تلك الانتصارات التى حققها الحلفاء فى أفريقيا وإيطاليا لم تجعله يتراجع عن هذه الفكرة : ذلك أنه كان يؤمن بأن الديمقراطية تخنث الشعوب !

وإلى صيف عام ١٩٤٤ ، لم يكن يكف قط عن الاعتقاد بأن القوات الألمانية قادرة تماماً

على أن تستعيد كل شيء فى الغرب فى أقل وقت ممكن ؛ إذ كانت فكرته عن رجال الدولة فى تلك البلاد لها علاقة بهذه الوجهة من النظر . ولم يكن ونستون تشرشل فى رأيه الذى كان يكرره فى اجتماعات أركان الحرب سوى رجل غوغائى عاجز ، وأنه سكير لا يفيق من أحلامه قط .

أما روزفلت فإن هتلر كان يؤكد جادا أن مرضه ليس ناشئاً عن إصابته بتدرن رئوى ؛ وإنما يرجع إلى شلل نتج عن إصابته بالزهرى ، وأنه لذلك إنسان غير مسئول !

وهتلر فى هذه التقديرات إنما يعمد إلى الهروب من الواقع ، وهى صفة ظلت منذ ذلك الوقت تلازمه حتى آخر أيامه .

هتلر فى قاعة الخرائط الخاصة فى مقرهى عش النسر فى برخستجادن ، يتابع تقدم القوات الألمانية فى ساحات المعارك المختلفة . وإلى جانبه ألبرت سبير وزير الإنتاج الحربى .

هتلر فى (جحر الذئب) فى راستبورج الذى انتقل إليه ابتداء من عام ١٩٤٢ ، يداعب كلبه الأمين (بلوندى) ، الذى قال أنه الوحيد فى مقر القيادة الذى يشعر بالهدوء .

obeikandl.com

الفصل الثانى والثلاثون

مؤامرة . . وحفنة من الجنرالات

برغم أن الكثيرين من العسكريين الألمان الكبار كانوا يتخذون موقف التحفظ أو العداء تجاه هتلر – وهما تحفظ وعداء أوحى بهما أو ضاعف منهما الاعتقاد الجازم بأن هزيمة ألمانيا أصبحت أمراً محتوماً – فإن قلة ضئيلة منهم هم الذين كانوا على استعداد للانتقال من النقد الى التفكير فى إحداث انقلاب ، كما سوف يثبت من مؤامرة يوم ٢٠ من يوليو .

حقا إنه كانت هناك من قبل الحرب معارضة من العسكريين المحافظين ، بقيادة الجنرال (بيك) ومعه الكولونل (أوستر) و (جوردلر) عمدة مدينة ليبزيج فى إمكانها الاعتماد على بعض الجنرالات مثل الجنرال فون فيتزليبن ، وهوبنر ، وهالدر ، وفون ترشكوف ، وكارل فون ستولبناجل ، إلا أن الشعبية التى اكتسبها هتلر بعد ميونيخ . ثم انتصاراته المتلاحقة ، والأحداث العسكرية التى بددت الرجال ، كل ذلك قد حال دون أى تآمر جاد .

ومع ذلك فإن الاتصال قد ظل قائما بين أعضاء هذه المعارضة الذين ضموا صفوفهم ابتداء من عام ١٩٤٣، عندما ظهرت الضرورة الملحة لإبعاد هتلر إذا أريد تجنب خراب ألمانيا . غير أنه سوف يتضح أن أغلب الذين شاركوا فى مؤامرة يوليو ١٩٤٤ إنما كانوا من الجنرالات المتقاعدين ، أو من الذين أخرجوا من الجيش ، ومن رتب الكولونلات أو مادون ذلك : أى أنهم كانوا رجالا بغير قوات .

أما الجنرالات الذين كانوا يتولون قيادات كبيرة ، فلم تجتذبهم هذه المؤامرة ، مراوغة أو تردداً . كل ما فعلوه أنهم التزموا الصمت ، مع أنهم كانوا يعلمون بوجود المؤامرة ، وهو ما يدل على أنهم سوف ينضمون إليها فى حالة نجاحها . ويشبه ذلك على وجه التقريب ما حدث فى الجيش الفرنسى عام ١٩٦١ ، عندما وقع ما سمى بانقلاب الجزائر ، إلا أن الجنرالات الفرنسيين كانت تحت سيطرتهم قوات أكبر مما كانت تحت سيطرة المتآمرين فى برلين .

وفى يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ، أصدر هتلر الذى كان لا يستيقظ عادة من نومه إلا فى الساعة العاشرة صباحاً ، أمراً بأن يوقظوه فى الساعة التاسعة : ذلك أنه كان ينتظر موسوليني فى ساعة مبكرة من بعد ظهر ذلك اليوم ؛ مما اضطره إلى تقديم موعد أول مؤتمراته الحربية اليومية الذى يعقد فى تمام الساعة الواحدة .

وكان هتلر فى ذلك الصباح متعكر المزاج من تأثير المواد المخدرة التى يتعاطاها ، والمنشطات التى يحقنه بها الدكتور (موريل) الذى يشرف على علاجه . غير أن المحيطين به لاحظوا أنه أكثر عصبية فى ذلك اليوم منه فى أى يوم آخر . وفضلا عن ذلك فإنهم يعرفون أنه يكره مقر قيادته العامة فى بروسيا الشرقية ، وهو ما أسماه « جحر الذئب » ، لبرودته القارصة شتاء ، والوحشة التى تخيم عليه منذ وصل يوم السابع عشر ، فوجده خانقا لا يطاق .

وقد شعر بالأسف على أنه حرم الهواء الصافى الذى تركه فى قيادته العامة فى بافاريا ، وراح يقارن بين تلك القيادة فى (برجهوف) بمخابئها التى أقيمت فى باطن الأرض فسيحة شاسعة ، حيث كان يعقد اجتماعات أركان الحرب عندما كانت طائرات العدو تقوم بغاراتها هناك ، وبين هذه القيادة فى (جاستر باراك) ، التى تحول نوافذها العشر المفتوحة على آخرها دون مرور الهواء .

وكانت هذه القيادة قد أقيمت فى بداية عام ١٩٤١ من عدة أكواخ صنعت من الخشب ، ولكنها دعمت فى الربيع بطبقة كثيفة من الأسمنت المسلح بناء على تعليمات من ألبرت سبير . وكانت هذه العملية لا تزال مستمرة فى هذه « القرية » العجيبة التى أخفيت ببراعة حتى لا تظهر من الجو ، فغطيت أسقفها بشباك خضراء وضعت فوقها أوراق وأغصان الشجر ، فأصبحت جزءا لا يتجزأ من الغابة المحيطة بها .

* * *

وكان هتلر قد ألقى فى الليلة السابقة حديثا على مسكرتيريه ؛ كما اعتاد أن يفعل فى ختام المؤتمر الذى يعقده فى منتصف الليل ، واستمر يتحدث حتى الساعة الثالثة صباحا . وقد ظل يحتجزهم بعد هذا الحديث وهو واقف على قدميه ؛ ليقول لهم عبارة أخيرة : « إن لدى شعوراً سيئاً ، ولكن المهم ألا يحدث لى شىء ؛ فليس من حقى أن أسقط مريضاً ؛ فليس هناك وقت لذلك » .

كان الهدف الرئيسى من ذلك المؤتمر يتعلق بالإجراءات العاجلة التى ينبغى اتخاذها للصمود

فى وجه الهجوم الجديد الذى شنه الروس فى إقليم (جاليسيا) . وعندما دخل هتلر فى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر إلى المخبأ ، كانت خرائط العمليات تغطى المائدة الطويلة الوحيدة التى وضعت حولها بضع مقاعد بدائية .

وكان فى الاجتماع الجنرال إيبرباش قائد قوات حرس الفوهرر ، والجنرال سيب ديتريش ، ونائب الجنرال جانسى رئيس أركان حرب المدرعات الجديدة . وقد أكمل الاجتماع كل من الجنرال هو سينجر مدير العمليات ، ومساعده الكولونل برانتب ، والجنرالات شمونت وجودل وكورتن، ولم يكن باقياً سوى المارشال كيتل ، وأحد الضباط الذى استدعاه هو الكولونل كونت كلاوس فون ستاو فنبرج الذى قدم من برلين ؛ ليقدم تقريراً عن فرق الحرس الشعبى الجديدة التى رأى هتلر أن تشكيلها يتم ببطء شديد .

وبإشارة من الفوهرر ، بدأ هوسنجر يتحدث . وفى الوقت نفسه فتح الباب ليدخل منه كيتل ، وقد بدا عليه الاضطراب لتأخره دقيقتين عن موعدالاجتماع ،يتبعه ستاوفنبرج وياوره الخاص . وألقى هتلر نظرة تعجب إلى هذين الرجلين اللذين سارع كيتل بذكر اسميهما ، ولو أن ستاو فنبرج سبق له أن اشترك فى مؤتمرين كبيرين للقيادة العامة ؛ كما أنه من الأشخاص الذين لا ينساهم المرء بسهولة .

كان هذا الضابط الطويل القامة الذى يبلغ السابعة والثلاثين من عمره يبدو جميلا برغم تلك العصابة التى التفت على جبهته ؛ ففى معركة تونس فقد إحدى عينيه ، وعدداً من أصابع يده اليسرى .

وحيا هتلر ، الذى كان يخفى الرعدة التى تسرى فى يده اليسرى ، القادمين بيده اليمنى فى إيجاز ، ثم أومأ إلى هوسنجر للمضى فى حديثه .

وجلس ستاوفنبرج بين كيتل وبرانت على بعد أقل من مترين عن هتلر، الذى كان جالساً وإلى جواره سكرتيره الخاص (برجر) ، واثنان من المختزلين . أما الضباط الستة المعينون لحراسته من قوات العاصفة ، ومندوبا هيملر وجورنج فإنهم ظلوا وقوفاً ، مثلهم مثل الجنرالات .

وانحنى ستاوفنبرج ليسند حقيبة أوراقه على إحدى أرجل المائدة ، ثم أخذ يلتقط أنفاسه ؛ فقد كان لا يزال يسائل نفسه : هل سيصل بحقيبة الشمينة ، وكذلك هو نفسه حتى « جحر الذئب » .

والواقع أن هذه كانت المرة الثالثة التي يحمل فيها قنبلة شديدة الانفجار بين ملفاته وأوراقه ؛ وكان ياوره الخاص فيرير فون هايفتن يحفى بدوره قنبلة أخرى بالطريقة نفسها لاستخدامها إذا لم تنفجر الأولى .

وكان ستاوفنبرج قد اشترك منذ تعيينه فى يونية الماضى فى منصب رئيس أركان حرب الجنرال (فروم) القائد العام للجيش الداخلى ، فى عدد من المؤتمرات العسكرية التى يرأسها هتلر . وكان هذا الضابط الكاثوليكى المتزمت الذى ينحدر من أسرة من كبار الجنرالات ، من بينهم الجنرال (جايزنآو) وهو ابن رئيس ديوان آخر ملوك فورتنبورج ، يؤمن فى البداية بفضائل الوطنية الاشتراكية قبل أن يتولاه شعور بالعار والاشمئزاز فور وقوع عمليات الاضطهاد الأولى التى تعرضت لها الكنائس المسيحية ، ونتيجة لأعمال التعذيب التى تعرض لها اليهود .

ولقد تدعمت معارضته لهتلر منذ عامين . وأصبح ينتمى إلى جماعة من العسكريين الذين كانوا يسعون للقضاء على هتلر ، وإقامة حكومة قادرة على الدخول فى مفاوضات مع الحلفاء . وقد استطاع ستاوفنبرج بثقافته العالية أن يلهب بحيويته وآرائه أولئك الذين كان يحاول إقناعهم بفكرته . ونجح فى أن يجتذب إلى حركة المعارضة جميع الرجال الذين اتصل بهم . وقد استقر هو وأصدقاؤه منذ بضعة أشهر على أنه يتحتم الانتهاء من هذه المهمة .

وعندما وجهت إليه الدعوة لحضور مؤتمر القيادة العليا للفوهرر يوم ١١ من يوليو ، كُلف بالقيام بمهمة اغتيال هيملر وجورنج فى الوقت الذى يقتل فيه سيدهما الفوهرر . لكن هيملر كان غائباً عن هذا الاجتماع ، فلما بلغ الجنرال أولبريشت الضالع فى المؤامرة ذلك ، أمر ستاوفنبرج بتأجيل مهمته .

وقد سنحت الفرصة بعد ذلك بأربعة أيام أى يوم ١٥ من يوليو : فعندما دعى ستاوفنبرج إلى مؤتمر القيادة فى (راستنبرج) تخلف لحظة عن الحضور ، لكى يتصل تليفونياً بالجنرال أولبريشت ليبلغه بعبارات متفق عليها أن هتلر سوف يموت بعد برهة وجيزة . وإذ تيقن الجنرال من النجاح هذه المرة . فإنه سارع إلى البدء فى تنفيذ خطة التمرد . !

غير أن ستاوفنبرج عندما عاد إلى قاعة المؤتمرات لم يجد فيها هتلر الذى تصادف أن اكتفى بإلقاء بضع كلمات ثم انصرف . وقد تمكن أولبريشت فى آخر لحظة من وقف تحرك الوحدات المتآمرة التى كانت قد بدأت بالفعل تزحف على برلين ، وقد شرح هذا التحرك للجنرال

(فروم) الذى انزعج له ، بأنه مجرد تدريب .

وكانت خطة المتآمرين قد تم إعدادها منذ شهر أغسطس ١٩٤٣ ، والذى وضعها هو ستاوفنبرج نفسه بناء على طلب المارشال فون فيتزليبن والجنرال بيك ، وعلى إقتراح من الجنرال أولبريشت . وقد وضع أسسها الأولى من قبل ميونيخ كل من الجنرال بيك والأميرال كاناريس مدير مخابرات الجيش والمارشال فون فيتزليبن ، الذى لم يكن فى القوات العاملة ، وكارل جويردلر عمدة ليبزيج السابق ، وجميعهم من الذين ناهضوا النازية من الساعات الأولى .

وتقوم الخطة أساساً على أنه فور إعلان موت هتلر يتم احتلال جميع المبانى العسكرية فى برلين وكولونيا وميونيخ وفيينا ، وفى غيرها من المراكز الحيوية . وفى الوقت نفسه يجرى شل حركة قوات العاصفة فى برلين وما حولها . وكان فى إمكان المتآمرين الاعتماد على مساعدة لواء الحرس - أو على الأقل كان يعتقد ذلك - وعلى بعض وحدات من المشاة والمدفعية والمدرعات ، وجميعها تحت قيادة أعضاء فى المؤامرة .

وكان ينتظر أن يعاون البوليس الذى تحت امرة الكونت هلدورف ومساعده فريتس فون شولنبورج قوات الجيش ، وكذلك تفعل قوات « الساحة » التى يتولى قيادتها الجنرال فون هاسى ، والجنرال فيلجيبل مدير الاتصالات اللاسلكية فى قيادة (راستنبورج) العامة . وكان الجنرال هالدر الرئيس السابق لهيئة أركان حرب القوات البرية الذى أحيل إلى الاستيداع عام ١٩٤٢ ، قد انضم إلى المتآمرين .

وفى الشرق ، كانت صفوف المناهضين للنازية قد تدعمت عقب الهزائم الحربية وهبوط الحلفاء فى نورماندى ، ووقفت وراء الميجور جنرال فون ترشكوف رئيس أركان حرب الجيش الثانى ، وهو أحد المحركين للمؤامرة الذى سبق له أن أعد عام ١٩٤٣ محاولتين فاشلتين لاغتيال هتلر ، وفى الغرب وراء فون ستولبناجل فى باريس ، وفون فالكنهاوزن فى بلجيكا .

وكان المعتقد أن الاستعدادات كافة قد اتخذت من أجل تأمين سير عملية (فالكيرى) ، فقامت أريكا فون ترشكوف زوجة الجنرال وابنة الجنرال فون أوفن بإعداد نسخ من أوامر الخطة ، وتمكنت من محاكاة توقيع الجنرال فروم بكل إتقان . وقد أطلق عليها هذا الاسم رغبة من المتآمرين فى خلق نوع من البلبلة والخلط مع مشروع وضعه الفوهرر بنفسه تحت هذه التسمية لإخماد أى اضطرابات محتملة .

بيد أن المتآمرين لم يستطيعوا الحصول على موافقة نهائية من جانب المارشالين روميل وفون كلوجه الذى خلف فون رونشتت فى قيادة الجبهة الغربية : أما روميل فقد وعد بمجرد المعاونة فى اعتقال هتلر ، إذ رأى أنَّ واجبه يحتم عليه أن يهب لمساعدة ألمانيا ، ولكن لا شىء أكثر من ذلك . وأما فون كلوجه فقد اكتفى بالاعتراف بأنه من الضرورى عمل شىء ضد الفوهرر .

وفيما يتعلق بالجنرال فروم قائد الجيش الداخلى ، فقد ارتبط بالمؤامرة يوماً واحدا ، ثم عاد فى اليوم التالى وتراجع ، وقد أحدث تحوله هذا نوعاً عميقاً من الشكوك . وعلى العموم فإن قلة من الجنرالات الذين يتولون قيادات هامة هم الذين انضموا إلى المؤامرة . غير أن هؤلاء الذين تم الاتصال بهم بشأنها ، أو أحيطوا علما بها ، إذا كانوا لم يسايروها ، فإنهم لم يكشفوا شيئاً عنها .

وإلى جانب العسكريين كان هناك رجال كبار ينتمون إلى آفاق مختلفة : من بينهم الأرستقراطيون ، والقضاة ، والدبلوماسيون ، والقسس الكاثوليك أو الرعاة البروتستانت الذين تكونت منهم حول الكونت فون مولتكه حلقة (كرايزاو) ، وهو اسم عزبة هذا الكونت . وقد انضم إليهم عدد من أعضاء الحزب الاشتراكى الديمقراطى مثل جوليوس ليبير ، ورايشفاين ، وهولباش ، وعدد من النقابيين المسيحيين مثل جاكوب كايزر ، تحدوهم جميعا فكرة الواجب المسيحى .

وفى يوم ٢٠ من يوليو غادر ستاوفنبرج وفون هايفتن ، وكل منهما معه قنبلته برلين فى الساعة السادسة صباحاً ، واتخذا طريقهما إلى مطار (رانجسدورف) . وكان الجنرال ميجور (ستايف) الذى أمدهما بالقنبلتين كما فعل قبل ذلك فى عام ١٩٤٣ فى المحاولة التى دبرها فون ترشكوف يقف فى انتظارهما عند طائرة من طراز (هينكل) : وهى الطائرة المخصصة للجنرال إدوارد فاجنر وضعها تحت تصرفهما ومعها طيار موثوق فيه .

لم يتبادل الثلاثة سوى كلمات قليلة ، وكان كل منهم يعرف أن الموت مترصد لهم عند نهاية هذه الرحلة . وارتفعت الطائرة عن الأرض فى الساعة السابعة ، وأحس ستاوفنبرج بثقة غامرة ، وهو يقطع الخمسمائة والخمسين من الكيلومترات التى تفصل بين برلين ومطار (راستنبورج) . ثم إنه كان واثقا من القنبلة التى معه ، ومن أن المتآمرين فى حالة تأهب كامل فى برلين . وفى الساعة العاشرة والربع وصلت الطائرة إلى وجهتها .

* * *

وقال فون هايفتن وهو يهبط من طائرة إلـ (هينكل) لقائدها : « فلتكن مستعداً للإقلاع فى أى لحظة ابتداء من الساعة ١٣,٠٠ .

وكانت فى انتظارهما سيارة من القيادة العامة ؛ لكى تحملها إلى « جحر الذئب» الذى يبعد ثمانية كيلومترات .

ولم يكن فى استطاعة أى إنسان أن يقترب من « جحر الذئب » بغير جواز مرور خاص وتأشيرة دخول معينة يسرى مفعولها لبضع ساعات فقط ، ولا يزيد بأى حال عن يوم واحد . وفى قلب الغابة أنشئ طريق صغير يؤدى إلى أول منطقة بها أكواخ خصصت لعمال مؤسسة (تودت) ورجال الحرس من جنود العاصفة الذين يقومون ومعهم كلاب بوليسية بدوريات مستمرة ليلا ونهاراً .

وتفصل حقول الألغام والأسلاك الشائكة التى تسرى فيها الكهربا هذه « القرية » عن القرية التالية ، التى خصصت لضباط القيادة العليا ولرجال إدارة الدعاية والإعلام .

وعندما وصل ستاوفنبرج إلى النطاق الثالث تمنى ألا يعمد ضابط الأمن إلى فتح حقيبته . وقد اكتفى الضابط بالفعل بمراجعة جوازى المرور ، إذ كانت لديه توصية على الزائرين من فون مولندورف مساعد قائد المعسكر . وقصد ستاوفنبرج بعد ذلك إلى الجنرال فيلجيبل مدير الاتصالات اللاسلكية ، والعضو الأساسى فى المؤامرة قبل أن يذهب ليعرض على كيتل ملخصاً من تقريره ، فقال له هذا : « عليك أن توجز ، إذْ إن الفوهرر يهمه أن ينتهى المؤتمر بسرعة ؛ لأن القطار الذى يحمل الدوتشى سوف يصل الساعة ١٤,٣٠ .

وعند ذلك غادر المارشال كيتل مكتبه ومعه ستاوفنبرج الذى قال : إنه نسى قبعته فى ردهة المكتب ، وعاد أدراجه ، وبالأصابع الثلاثة المتبقية فى يده حطم الكبسولة التى تحتوى على الحامض ، وكان هذا الحامض سيعمل على إذابة طرف سلك فيؤدى خلال الدقائق العشر القادمة إلى انفجار القنبلة .

وفى اللحظة التى هم فيها ستاوفنبرج بالدخول إلى « جحر الذئب » توقف مرة أخرى ؛ لكى يبلغ بصوت مرتفع لكى يسمعه كيتل السرجنت العامل على خطوط التليفون – أنه ينتظر اتصالا من برلين .

وما كاد هاوسنجر يستأنف العرض الذى كان قد بدأه حتى غادر ستاوفنبرج القاعة خلسة يتبعه ياوره ، وكان الآخرون يتطلعون فى تلك اللحظة إلى خريطة العمليات ، وعندما رفع

كيتل رأسه فلم ير الكولونل قام للبحث عنه فى غرفة التليفون ، إذ كان عليه الآن أن يلقى كلمته .

وقال له العريف : إنه رآه يخرج مسرعاً ومعه ياوره ، فعاد كيتل إلى قاعة الاجتماع مفكراً فاستمع إلى العبارة الأخيرة فى تقرير هاوسنجر التى قال فيها : « إن الروس يزحفون بقوات ضخمة ، ويتقدمون قادمين من غرب نهر (دونا) فى اتجاه الشمال ، فإذا لم تنسحب مجموعة جيوشنا المرابطة حول بحيرة (بيبوس) فوراً ، فستتعرض لكارثة » .

وتبددت الكلمات فى دوى الانفجار المروع ، ثم ارتفعت ألسنة من اللهب ، فانهارت الجدران والسقف وسط دخان أسود . وعلت صرخات الألم ، مما ضاعف من هول هذا المشهد .

وعلى صوت الانفجار جاء الضباط ورجال الأمن مسرعين ، فرأوا جثثاً ملقاة على الأرض ، وأخرى طارت عبر النوافذ ، وجدران القاعة وقد تهشمت . وكانت الساعة عندئذ الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين .

وفى خطوات سريعة قصد ستاوفنبرج وفون هايفتن إلى الجنرال فيلجيبل ، فرأوا معاً الانفجار فى كوخ الاجتماع ، وبينما أخذ الجنرال يتصل تليفونياً ببرلين لكى يبلغ بدء عملية (فالكيرى) قفز الاثنان إلى السيارة التى ستقلهما إلى مطار (راستنبرج) ، وقال ستاوفنبرج للسائق : «أسرع ، فإن لدى مهمة عاجلة ! »

غير أن الحراس كانوا قد أغلقوا البوابات المزدوجة لدى سماع الانفجار ، ومنعوا الخروج منها ، وطلبوا إرسال تعزيزات . وعند ذلك اتصل ستاوفنبرج بالجنرال مولندورف ، وحصل منه على تصريح بالمرور .

غير أنه عند الحاجز الثالث رفض ضابط من قوات العاصفة أن يسمح له بالخروج ، فاتصل مرة أخرى بالجنرال مولندورف الذى تحدث إلى الضابط الذى تطلع برهة قصيرة إلى يد ستاوفنبرج المشوهة وإلى الأوسمة المعلقة على صدره ، ثم سمح له أخيراً بالخروج .

وفى داخل السيارة فكك فون هايفتن خفية القنبلة الاحتياطية ، والقى قطعها على جانب الطريق ، حيث عثر عليها المحققون بعد ظهر ذلك اليوم .

* * *

وكما تم الاتفاق فإن قائد الطائرة كان مستعداً للإقلاع . وفى الساعة ١٣,١٥ تطلع

ستاوفنبرج إلى البحيرات والغابات تحته دون أن يرى منها شيئاً ، وتبادل كلمات قليلة وفون هايفتن والجنرال ستايف الذى لم يغادر الطائرة ، لقد كانت فكرة واحدة هى التى تسيطر على هؤلاء الرجال الثلاثة ، وهى أنه يتعين أن يعيدوا إلى ألمانيا السلام ومعه شرفها !

لكن هتلر لم يكن قد مات :

ذلك أن مصادفة أخرى أنقذت حياته ، وكانت هذه المصادفة اسمها (برانت) : لقد ضايقت ساقيه حقيبة ستاوفنبرج ، فدفعها بقدمه إلى الطرف الآخر من المائدة بعيداً عن الناحية التى يجلس فيها هتلر ، وقد أصيب برانت إصابة بالغة ، وأدلى بهذه الواقعة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه .

وهكذا بينما كان ستاوفنبرج وزملاؤه يفكرون فى الطريقة التى تسير بها عملية (فالكيرى) التى أعطى الجنرال فيلجيبل إشارة إلى أولبريشت ببدئها ، كان يجرى فى «جحر الذئب » مشهد ، بعيد كل البعد عن كل تصوراتهم .

لقد كان هتلر يتخطى الحطام والركام وهو يلهث وقد تغير شكله . واحمر شعر رأسه من اللهب ، واسودت وجنتاه ، وتمزقت ثيابه ، وتدلت ذراعاه إلى جانبيه يسنده ياوره الخاص (ستاوب) الذى كاد يحمله حملاً ، وقد جاء مسرعاً على دوى الانفجار ، ويسنده من الناحية الأخرى كيتل الذى لم يصب بأى شىء .

وذهل كيتل وهو يرى الفوهرر يستعيد قواه فجأة ، ويعاوده صوته القديم الذى كان يتحدث به أيام نورمبرج . على حين أن أسابيع كثيرة انقضت وهو يتكلم برعشة واضحة ، ثم يصيح قائلاً : «يجب ألا تصدر أو تتسرب أى كلمة عن هذا الحادث ، فالزموا الصمت المطبق ، وإلا فالموت لكم ! »

وعلى الفور أصدر أمراً بتعطيل أجهزة الاستماع والإرسال ، وأن تقام المتاريس حول المعسكر . وهبط إلى المخبإ المقام تحت الأرض حيث فحصه فون هازلباخ الطبيب الجراح . وبينما الطبيب يقوم بذلك ، إذا بهتلر يقفز واقفاً كما لو مسه نوع من الجنون ، وراح يصرخ قائلاً : «إنهم لم ينالونى ، ولكنى وضعت يدى أخيراً على هذه العصابة ! »

وتبين أن جراحه سطحية ، وسرعان ما نهض ليغير ثيابه ، وبدأ يسأل عمن يكون قد أصيب فى الحادث ، فأجاب كيتل : «لقد وقع عدد من القتلى » .

وكان الموتى هم (برجر) السكرتير ، وثلاثة ضباط من قوات العاصفة ، وإحدى

المختزلات التى قطع الانفجار ساقاً منها ، ثم ماتت بعد ذلك . وأما الذين أصيبو بجراح خطيرة لقوا مصرعهم بعدها ، فمنهم الجنرال (كورتن) رئيس أركان حرب القوات الجوية ، والجنرال (شمونت) ياور الفوهرر ، والكولونل (برانت) أما الذين أصيبوا فهم (بودنشاتز) رئيس أركان المارشال جورنج ، وعدد من الرتب المختلفة ، وجميع الذين حضروا المؤتمر ما عدا كيتل .

وجاء السرجنت العامل على خطوط التليفون بمجرد أن أفاق من حالة انفعال شديدة ، فكشف عن أنه لم يتلق أى مكالمة من برلين خاصة للضابط ستاوفنبرج الذى أسرع بالخروج ومعه ضابط آخر . وهنا وصلت إشارة بأن القطار الذى يقل موسولينى قد وصل إلى (راستنبورج) متأخراً ساعة عن موعده .

كان كل من ريبنتروب والأميرال دوينيتز قد قدما بالطائرة فور إبلاغهما بمحاولة الاغتيال ، فراحا يستقبلان الدوتشى إلى جانب جورنج وهملر . وسار موسولينى الذى بدا هزيلاً منحنى الظهر وراء هتلر ، لكى يريه المكان الذى وقع فيه الحادث ، وقال الدكتور شميت المترجم الرسمى للفوهرر فيما بعد : إن الرعب قد ظهر على وجه الدوتشى وهو يسمع تفاصيل ما حدث .

وبينما جلس الدكتاتوران لتناول الشاى جاء بلاغ بوقوع تمرد عسكرى من برلين ؛ وهنا انفجرت مشادة كلامية أذهلت الدكتاتور الإيطالى : فقد راح الأميرال دوينيتز يوبخ جورنج على الهزائم التى حاقت بالسلاح الجوى الألمانى ؛ كما أخذ جورنج يوجه عبارات اللوم إلى ريبنتروب على سياسته الخارجية ، واحتد فى ذلك إلى درجة أنه هدده بعصا الماريشالية ، وهو ينعته بأنه « مهرب حقير للشمبانيا » .

ولم يعبأ هتلر بهذه الضجة ، واستمر فى تناول الشاى ؛ ثم نطق واحد من الحاضرين باسم (روهم) ، فإذا به يصيح قائلاً إنه قتل روهم فعلاً ، وإن هذه العقوبة لم تكن شيئاً إلى جانب العقوبة التى يعدها لخونة اليوم ، وقال : « لسوف أزج فى السجون بزوجاتهم وأبنائهم ، أو أبعث بهم إلى معسكرات الاعتقال ، ولن تأخذنى بأحد رحمة ،وسوف أقتلهم جميعاً » .

وقبل أن يرافق موسولينى إلى المحطة عين هملر قائداً عاماً للجيش الداخلى ، وأمره بأن تقله فوراً طائرة يذهب بها إلى برلين ؛ لكى يسحق حركة التمرد ؛ ثم اتصل بقائد فرق الصاعقة فى العاصمة ، وأصدر له أمراً موجزاً قال فيه : « اقتل جميع المشتبه فيهم ؛ حتى آخر رجل ! »

* * *

وكان هؤلاء المشتبه فيهم مقتنعين تماماً بأن هتلر قد مات ، فراحوا يتصرفون تبعاً لذلك فى برلين وفى فرنسا . وما كاد الجنرال ستولبناجل قائد قوات الاحتلال فى فرنسا والجنرال (هوفاكر) يبلغهما نبأ (نجاح) عملية الاغتيال فى حوالى الساعة ١٦,٠٠ حتى سارعا باعتقال أكثر من ألف ومائتى رجل من قوات العاصفة فى العاصمة الفرنسية ، وفى مقدمتهم (أوبرج) مدير البوليس فى فرنسا ، ثم راحا يوزعان الشمبانيا احتفالاً بالنصر !

أما المارشال فون كلوجه فإنه بدا فى قيادته العامة فى (لاروش جويون) أكثر حذراً . وفى الساعة ١٨,٠٠ اتصل به ستاوفنبرج تليفونياً عن طريق (بيك) الذى ناشد قائد الجبهة الغربية أن يعلن صراحة أنه يؤيد المتآمرين . إلا أن فون كلوجه قد علم لتوه أن هناك نفياً قد صدر لموت هتلر ، وعند ذلك تردد ، وقال لمحدثه : إنه يتشاور هو وأركان حربه ، وسيعود لكى يتصل به بمجرد حصوله على إيضاحات عما يدور فى برلين . وهكذا لم تمض الأمور كما كانوا يتوقعون فى باريس .

أما فى برلين فإن ترتيبات خطة «فالكيرى» قد تفككت منذ البداية ، وبمعنى أدق فإنها لم تبدأ ، كما نما إلى علم ستاوفنبرج الذى روعه ذلك ، عندما اتصل تليفونياً فى حوالى الساعة ١٦,٠٠ من مطار (رانجسدورف) بالجنرال أولبريشت : ذلك أن فشل محاولة يوم ١٥ من يوليو جعلت ألبريشت متحفظاً شديد الحذر . وفضلاً عن هذا الحذر فإنه كان يخشى أجهزة التصنت لدى الجستابو ، وخاصة بعد أن اتصل به الجنرال فيلجيبل من «جحر الذئب» .

وقال له ستاوفنبرج يناشده : «ابدءوا العمل ولا تنتظروا حتى أجىء ؛ فأمامى طريق يستغرق خمسا وأربعين دقيقة ، ويجب أن تصدر أوامر التنفيذ منذ الآن» .

وكانت هذه الأوامر قد وقع بعضها (فيترليين) منذ شهور ، وتحمل الأخرى التوقيع المزيف للجنرال فروم . وراح الكولونل مرتزفون كيرنهايم يبلغها عن طريق التليكس والتليفون ، وكانت الساعة قد تجاوزت الـ ١٦,٠٠ أى أن ثلاث ساعات ثمينة قد ضاعت بغير أن يتم احتلال أى وزارة ، ولا أى مبنى عسكرى ، وكانت محطات الإذاعة تعمل بصورة طبيعية ، ولم تبدأ أى وحدة فى التحرك .

واكتفى كل من (هيلدورف) مدير البوليس ، وآرثر نيبه الجنرال بقوات العاصفة ، وكلاهما عضو عامل فى المؤامرة ، بأن جعل جهازه البوليسى فى حالة توقف .

وقد فطنوا إلى أن توزيع قوات العاصفة فى برلين غير معروف على وجهه الحقيق ، وأنه لم

يتم إعداد اتصال مأمون بين المتآمرين الذين لم يكن تحت تصرفهم سيارات للانتقالات . ولم يصل الجنرال (بيك) إلى وزارة الحرب إلا فى الساعة ١٦,٠٠ على حين أن الجنرال فون فيترلبين الذى كان سيتولى قيادة الجيش لم يعثر له على أثر .

وأخذ بيك وهوبنر وأولبريشت ويورك وشولنبورج وغيرهم يتحدثون فى وزارة الحرب ، ويتنقلون من مكتب إلى آخر ، وفى اختصار فإنه لم يتم عمل أى شىء قبل وصول ستاوفنبرج . وكانوا ينتظرونه حتى يقنع فروم بأن هتلر قد مات . وقال قائد الجيش الداخلى : «لقد حدثت مع كيتل بالتليفون . وقال لى : إن الفوهرر يتناول الشاى مع موسولينى» .

فهتف أولبريشت : « وكيف ذلك ؟ » والواقع أنه كان يعتقد أن الخطوط التليفونية فى القيادة العامة مقطوعة . ومن ثم فإن فروم لم يستطع أن يتصل بكيتل . ولكن فروم طلب القيادة . ثم أعطى السماعة لأولبرشت الذى استمع وهو مذهول إلى صوت كيتل الذى قال له : «لقد كانت هناك محاولة اغتيال ، ولكنها فشلت ولله الحمد ، ولم يصب الفوهرر إلا بخدش طفيفة ، وبالمناسبة . . أين رئيس أركان حربك ستاوفنبرج ؟» .

أجاب أولبريشت : «إنه لم يصل بعد» .

ووصل هذا بعد قليل إلى وزارة الحرب . فأبدى امتعاضه من أن شيئاً لم يتم ، وثار على «الأكذوبة» التى رددها كيتل ، وقال لفروم مهتاجاً : «إن كيتل يكذب : لقد أشعلت بنفسى فتيل القنبلة . ورأيتها تنفجر ، وليس هناك شخص واحد على قيد الحياة هناك ! » .

فأردف الجنرال فروم : «ليس أمامك الآن إلا أن تنتحر ! »

ولكن أولبرشت قال : «إننا نحن الذين سنعتقلك ! »

وبالفعل أغلقوا عليه أحد المكاتب ، ووضعوا هوبنر على رأس الجيش الداخلى .

ولكن هوبنر الذى كان لايزال متشككاً طلب الحصول على أمر مكتوب . والواقع أن الشك اجتاح جميع النفوس ، وأصبحوا غير واثقين من أن كيتل كان يكذب ، ثم إن خطة (فالكيرى) لم تكن تعالج حالة معينة هى بقاء هتلر على قيد الحياة .

* * *

إن أحد المتآمرين القلائل الذى نجا من هذه المأساة ، وهو فابيان فون شلابندورف - قد اعترف فيما بعد - بأن الدماء كان ينتظر أن تسيل أنهاراً يوم ٢٠ من يوليو . ولكن رجال ٢٠ من يوليو - بدلاً من ذلك - قالوا للعالم كله : «إننا لسنا ثواراً حقيقيين ! »

والحق أن ذلك هو ما اتضح من الوقائع : فى الوقت الذى كان الجنرال فروم يقبض عليه فيه ، ويوضع أسيراً فى غرفة بالطابق الذى يعلو مكتبه، لم تلق الأوامر التى أصدرها (مرتزفون جيرسهايم) أى صدى جدى . فلم تحتل القوات المشاركة فى المؤامرة سوى جزء من وزارة الحرب . وفى حوالى الساعة ١٧,٣٠ زحفت بعض فصائل من لواء حرس برلين على دار المستشارية ووزارة الدعاية . وهى تجهل أنه لا يمكن لأى إنسان دخولها إلا بتصريح خاص من الفوهرر. وقد صدرت الأوامر إلى الحرس التابع لقوات العاصفة بإطلاق النار على كل من يقترب من هذين المبنيين ، وإزاء ذلك انسحب أولئك المهاجمون إلى بعيد . وسرعان ما أبلغت القيادة العامة فى «جحر الذئب» الحادث ، فعلق عليه هتلر قائلاً : «إن أولئك الأغبياء لم يقطعوا حتى أسلاك التليفون ! » .

وحوالى الساعة ١٨,٤٥ من اليوم نفسه أعلنت محطات الإذاعة الألمانية القوية على جميع أنحاء العالم أن معجزة قد وقعت ، فجعلت أدولف هتلر ينجو من الاغتيال ! وفى منتصف الليل اتصل جوبلز وهملر من وزارة الدعاية بقيادة هتلر . وأبلغاه أن المؤامرة قد تم سحقها ، وأن جميع الذين اشتركوا فيها قد أعدموا ، أو انتحروا .

وعند ذلك استمعت كل أوربا إلى صوت هتلر قوياً مجلجلاً وهو يقول موجهاً حديثه إلى الشعب الألمانى : «أيها الرفاق الألمان : إننى لم أصب بسوء ! وهذا تأكيدٌ بأن العناية الإلهية ترعانى ، وما هؤلاء المتآمرون سوى حفنة من المجرمين الذين سيسحقون دون شفقة ولا رحمة ، وسنعاملهم كما نعامل الأعداء ! » .

ووفقاً لسجلات الجستابو فإن سبعة آلاف شخص قد اعتقلوا ، أعدم منهم ٤٩٨٠ شخصاً فى اليوم نفسه أو خلال الأيام التالية .

وهكذا فإن مؤامرة ٢٠ من يوليو قد كشفت للشعب الألمانى عن وجود معارضة داخل البلاد ، ولكنها معارضة محدودة لا عمق لها ، وأنها مجرد تآلف عدد من الأفراد الحاقدين ذوى المصالح الخاصة الذين لايلقون أى تأييد .

٢٠ يوليو ١٩٤٤ :
الماريشال جورنج يتلقى الأوامر من هتلر عقب المؤامرة ، وقد عاوده هدوءه تماماً ، وتقضى بسحق المتآمرين جميعاً .
وقد وقف موسوليني مذهولاً يستمع إلى تفاصيل النتائج التى أسفر عنها الإنفجار .

٢٠ يوليو ١٩٤٤ .

جورنج (فى الوسط) ومارتن بورمان (فى أقصى اليسار) يعاينان القاعة التى نجا هتلر بمعجزة من الموت فيها .

وبعد وقوع الإنفجار بثلاث ساعات ، كان الفوهرر يستعد لاستقبال الدوتشى الإيطالى موسوليني .

الجنرال جودل (الثانى من اليسار) مدير العمليات والضابط فى هيئة الأركان المتمكن من اختصاصاته ، وقع غالباً تحت نفوذ الفوهرر ، الذى استخدمه لتحويل مفاهيمه الإستراتيجية إلى خطط ميدانية .

الجنرال جودل يوقع يوم ٧ مايو ١٩٤٥ فى (ريمز) وثيقة الاستسلام دون قيد ولا شرط . وقد أعدمه الحلفاء شنقاً فى نورمبرج ، بغير مبرر كاف لذلك .

أول يناير ١٩٤٥ :

أدولف هتلر يستقبل هانز رودل ، وهو الطيار الألمانى الباسل ، الذى دمر عشرده ٥١٩ دبابة للعدو ، وأغرق له إحدى سفنه الحربية وقد رقاه هتلر إلى رتبة (الكولونل) وأنشأ خصيصاً له وساماً رفيعاً كان هو الوحيد الذى يحمله وهو (وسام أوراق الغار) الذهبى . وقال له فى هذه المناسبة « إنك أعظم وأشجع جندى يمتلكه الشعب الألمانى » ، بينما وقف كل من جودل وكيتل ودوينتس .

obeikandl.com

مراجع الكتـاب

١ - ألاعيب الدول - جون سبانير

٢ - مدخل إلى الاستراتيجية - الجنرال بوفر

٣ - الصراعات الشاملة - جورج كينان

٤ علم السياسة وارنر شيلينج

٥ - قصة بيرل هاربر - جياني بو

٦ الأسلحة والسياسة الخارجية - هنرى كسينجر

٧ - التفكير فيما لا نفكر فيه - هرمان كان

٨ - مجموعة أعداد مجلة (هيستوريا)

٩ الرايخ الثالث وليام شيرر

١٠ مذكرات فون هالدر

١١ - فى قلب الرايخ الثالث - مذكرات ألبرت سبير

obeikandl.com